

كتاب **الأطال** رقم ٢٤

د. فؤاد زكريا



١.٢٥

مقاومة التاريخ الكبرى

على ماذا يراهن هو رباتشوف؟



# كتاب الأهالي

---

رقم ٢٤ / أبريل ١٩٩٠

# كتاب الأهالي

## ثقافة الهدم والبناء

●

●

●

●

●

●

●

●

رئيس مجلس الإدارة

لطفي واكد

رئيس التحرير

صلاح عيسى

اما وقد صممت مدافع الامة عن الدفاع . وحول العدو  
 نيران مدافعه الى جبهة الوعي والانتماء فقد كان لابد وان  
 يصدر كتاب الاهالي ليكون بعض جهدنا المتواضع في المعركة  
 التي تدور على جبهة العقل ليساهم في اعادة بناء الجسور  
 المنهارة بين الطليعة والشعب وبين المواطن والوطن وبين  
 الوطن والامة وبين هؤلاء جميعا والكون الذي نعيش فيه  
 ولاننا نعيش في عصر ثورة الاتصالات الذي يؤدي تدفق  
 معلوماته الى تشوش في اليقين فان حاجتنا الى العودة للتبشير  
 بالبداهيات واعادة احياء الذاكرة الوطنية لا تقل عن حاجتنا  
 الى التعمق الذي يحیی اليقين لا الذي يشوش عليه .  
 واذا كان منطق الحركة السياسية اليومية يحتمل المساومة  
 والوسطية فان جوهر دور اليسار على صعيد الوعي والانتماء  
 هو الهدم والبناء ذلك ان الامر هنا امر تكوين وتأسيس  
 يتجاوز ضرورات الحاضر وقيوده الى افاق المستقبل واحلامه .

## مجلس التحرير

د . إبراهيم سعد الدين

أبو سيف يوسف

حسين عبد الرازق

د . عبد العظيم أنيس

عبد الغفار شكر

محمد أحمد خلف الله

---

كتاب الأهالي سلسلة كتب تصدرها جريدة الأهالي

---

لسان حال حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوى

الآراء الواردة في كتب السلسلة لا تعبر بالضرورة عن رأى التجمع

---

للمراسلات ٢٣ شارع عبد الحائق ثروت - القاهرة



كتاب الأملاني  
قسم ٢٤

د. فؤاد زكريا



مقاومة التاريخ الكبرى

على ماذا يراهن هو رباتوف؟





## الفصل الأول

# المقدمات

لا اظن ان التنبؤ بالمسار الذي سيتخذه التاريخ ، حتى على المدى القريب ، كان في وقت من الاوقات أصعب مما هو في اللحظة الراهنة . اقول هذا وأنا على وعي تام بأن الاساليب العلمية لتكوين صورة منقولة عن الاوضاع المستقبلية قد تقدمت في الآونة الاخيرة تقدماً هائلاً ، حتى أصبح هناك علم قائم بذاته ، هو «المستقبليات» ، له اساتذته المتخصصون ونورياته العلمية ومعاهده ومؤتمرات ، ويستعين بأحدث طرق البحث وأبقي الحاسبات الالكترونية. ومع ذلك فإن التحول الذي طرأ على العالم في الربع الاخير من العام الذي ودعناه أخيراً ، قد خرج بحدة عن كل توقع، وتغز بعنف خارج كل اطار كان يوضع فيه المسار المحتمل للتاريخ، وأغلب الظن أن الصورة التي سيذكرها المؤرخون عن عقد الثمانينات بأكمله سيكون أغلبها مستمداً مما حدث في الاشهر الثلاثة الاخيرة من عامه الاخير، كما أن أحداث عقد التسعينات سوف تتحدد، الى مدى بعيد ، بما حدث في هذه الاشهر الثلاثة الحاسمة.

إن التاريخ ، الذي كان يبدو في نظر إنسان النصف الثاني من القرن العشرين مستأنساً طبعاً ، يمكن حساب العوامل المحكمة في تحولاته ، واستشفاف مساراته المقلية بقدر معقول من الدقة، يبدو اليوم، ونحن نستهل العقد الاخير من هذا القرن العجيب، أشبه

بالحسمان البري الجامع ، في لغزاته العشوائية وانطلاقات المفاجئة واستقصائه على لجام العقل.

لقد تنبه الكثيرون في الشرق والغرب، بعد التقلبات الاخيرة الصاخبة، الى التشابه الواضح بين عام ١٧٨٩، عام الثورة الفرنسية، وعام ١٩٨٩، عام الثورة في المعسكر الاشتراكي، ووجدوا في كل من العاملين مفتوق طرق حاسما في تاريخ البشرية، ولكن هل خطر هذا التشابه ببال أحد ممن سجلوا على صفحات جرائد العام كله توقعاتهم عن العام الجديد ، عند نهاية عام ١٩٨٨ ؟ وهل طاف هذا التشابه بذهن احد في الوقت الذي كان فيه العالم يحتفل مع فرنسا، بمرور مائتي عام على ثورتها في شهر يوليو «تموز» الماضي؟ هل توقع أحد خلال هذه الاحتفالات التي لم يعض عليها سوى خمسة اشهر ، أن تصبح للعالم خلال السنوات التالية التالية صدمة مختلفة تماما عن تلك التي اعتدناها، وبيننا عليها جميع تحايلاتنا وتوقعاتنا خلال السنوات الأربعين الماضية؟ وهل تخيل أحد ممن عرضت عليهم شاشات التلفزيون صورة تشاوشيسكو في نوفمبر الماضي، وهو يخطب في اجتماعه الحزبي الأخير ، فيرفض في سلف وغرور وعناد كل التغييرات التي اجتاحت أوروبا الشرقية، ويستقبله ألوف المناصرين (من يزعمون انهم مثله الشعب) بالتصفيق الحار عند كل مقطع في خطابه، والوقوف إجلالا عند ذكره وخروجه - أقول هل تخيل أحد عندئذ أن هذا الزعيم الجبار سيحس في الرجل، مع نظامه كله، معزقا بالرصاص بعد أقل من أسبوعين في أعقاب ثورة شعبية بطليحة ضمت بالكثير من أجل إزاحة الدائرة في زمن قياسي؟

كذا يبدو التاريخ، في أيامنا القليلة هذه ، أشبه بنهر مثل يسير في مجرى عادته ، ثم تدفق فجأة الى شلال هائل يهزم الاذان ، ولايسلك كل من يف يتأمل في جبر التدفق الصاخب بعد هذه طول، إلا أن يوقن بأن - براه لن يعود أبدا، بعد هذا الشلال ، مثلما كان.

إن الحيرة هي السمة المميّزة لكل محاولات التحليل التي تُقدّم للوضع الراهن في العالم بعد الاحداث العاتية التي عصفت بنظامه المستقر منذ أربعين عاما. ونحن يكتب أعقل العقلاء عن هذا الوضع العالمي الجديد، فانه لا يستبعد احتمالي حدوث شيء يقلب تحليلاته وتفسيراته رأسا على عقب في اليوم التالي لظهور مقال، لقد حلت المفاجآت محل التوقعات ، والدهشة محل التنبؤات ، واندمت الرؤية حتى أمام من يملكون أعظم

المعلومات وأدق أدوات التحليل.

ولكن، في قلب هذا التحول الخاطف الصاخب يقف رجل واحد في العالم لا يبدو عليه أي قدر من القلق إزاء ما يحدث. بل إن خصومه، الذين تبدو التغييرات وكأنها تسير في صالحهم، هم الذين يبذلون جهوداً هائلة من أجل إخفاء توترهم وقلقهم . هذا الرجل هو ميخائيل جورباتشوف، الذي أسهم في تغيير عالمنا بأكثر مما أسهم به أي فرد آخر في التاريخ المعاصر. وعلى الرغم من أن المثقفين في جيلنا قد اعتادوا ألا يبالغوا في تضخيم دور الفرد في التاريخ، وظلوا يؤكدون دائماً أن الصانع الحقيقي للتحولات الكبرى في مجرى العالم هو الجماهير، والقوانين الموضوعية التي تحكم تحركاتهم، وأن أي فرد مهما كانت مكانته لا يبدو أن يكون محصلة العوامل الاجتماعية الكبرى التي تتحكم في مسار التاريخ. على الرغم من هذا كله، فإن المرء لا يملك إلا أن يربط بين الثورة التاريخية الكبرى التي نعيش الآن أهم مراحلها، وبين شخص جورباتشوف على وجه التحديد، سواء نظرتنا إليه على أنه فرد عبقري، أم على أنه تجسيد لقوى تاريخية أوسع نطاقاً وأعمق تأصلاً منه.

وليس أدل على ذلك من تلك المفارقة الغريبة التي تلمسها في تقييم خصومه له: فالد أعدائه، في أميركا وإنجلترا مثلاً، يكيلون له المديح ويتفنون بحكمته وشجاعته ، في نفس الوقت الذي يؤكدون فيه أنه هو الخاسر الأكبر، وأن النظام الذي ينتمي إليه قد أنهار، وأن شعوبه قد اختارت التحول إلى النظام البديل.

ومعنى ذلك أن الإنسان المعاصر، سواء أكان ممن يعترفون بأن التحولات التاريخية في المعسكر الاشتراكي هي تحولات إيجابية، أو كان ممن يرون أنها تمثل النهاية العتمة لهذا المعسكر ولكل المعركة الأيديولوجية بين الرأسمالية والشيوعية ، ويؤكد في المآل أن هذا الرجل بعينه هو الذي يلعب دور البطولة على مسرح الأحداث العاصمة في عالم اليوم. ولكن السؤال الهام، والهام، يظل قائماً: فإذا كان العالم كله يعترف لجورباتشوف بالفضل الأكبر - وربما الوحيد - في إدارة عجلة التاريخ نحو هذا المنعطف الحاسم، فهل كان دوره يقتصر على البدء في تحريك الأحداث ، والسماح للتطورات بأن تسير في مجراها بحرية، دون تدخل من الدبابات السوفييتية التي منعت من قبل تحولات كثيرة داخل المعسكر الشيوعي ، أم أن المسار الذي تتخذه

الاحداث، بعد هذه البداية العاصفة، هو أيضا من صنعه؟ هل كان جورباتشوف، مثل إله ارسطو ، هو المحرك الاول للاحداث، ثم سارت هذه الاحداث بعد ذلك في طريقها الخاص دون تدخل منه، وأملت زمامها من بين يديه، أم أنه، بعد أن اعطى إشارة الانطلاق الاولى، ما زال معسكا بالدقة؟

إن العالم كله يعترف لجورباتشوف بالامر الاول ، أعنى البدء في تحريك الاحداث التي أدت الى تحول حاسم في التاريخ المعاصر، أما الامر الثاني، أعني مدى تحكمه في المسار اللاحق لهذا التحول ، فهو مدار خلاف كبير، من أصعب الامور في اللحظة الراهنة ، التي ترتفع فيها حرارة الاحداث الى درجة الغليان ، أن يتخذ المراء موقفا بين هذا الرأي وذاك ، لان وضوح الرؤية يحتاج الى وقت حتى ينقشع ضباب التقلبات العنيفة والمفاجئة.

ومع ذلك فان الرأي الذي أدافع عنه ، بقدر ما تسمح لي الاحداث الراهنة بالحكم ، هو أن جورباتشوف يقوم بمقامرة من أكبر مقامرات التاريخ، وفي كل مقامرة مقامرة، ولكن هل هي مقامرة محسوبة، أم انها متروكة للظروف؟ في اعتقادي أن جورباتشوف قد خاض هذه المقامرة بعد أن أجرى حسابات فيها قدر كبير من الدقة، ولكن لما كانت حركة التاريخ أعقد كثيرا من تلك الارقام التي تحملها الازجه الستة لمكعب النرد «الزهر»، فمن المتوقع أن تخطئ تلك الحسابات في كثير من التفاصيل، ومع ذلك فان ما أتصور أن جورباتشوف توقعه حين خاض هذه المقامرة بوعي كامل هو أنه سيبدو خاسرا على المدى القصير، ثم يبدأ تراكم المكاسب على المدى الأطوال ، هذه هي حساباته، كما أتصورها وإن كان احتمال الخطأ فيها يظل واردا على الدوام.

وفي اعتقادي أن معظم الاخطاء التي ترتكب في محاولة فهم الوضع الراهن لعالمنا المضطرب، بعد سلسلة الاحداث المفاجئة الاخيرة، ترجع الى أن المفكرين والمحللين ينظرون الى الاحداث التي تدور في اللحظة الراهنة كما لو كانت هي التي ستظل قائمة في المدى البعيد ، وهذا ينطبق على مؤيدي جورباتشوف ومعارضيه على حد سواء ، فعزيموه يقفون مشدوهين وهم يرونه يتامل بهدوء انهيار امبراطورية المعسكر الاشتراكي من حوله ، ويعربون عن أسفهم لاختفاء معسكر قوي كان على الاقل يشكل توازنا مع المعسكر الرأسمالي الاشد عدوانية ، وكثير منهم يطمنون في قرارة أنفسهم لو كان جورباتشوف أكثر حزما، ولو

أحكم قبضته بدرجة معينة حتى لا يفلت منه زمام الامور ، بل أن بعض  
انصار الاشتراكية المتحمسين يصل بهم الامر الى حد اتهامه ، سراً في  
معظم الاحيان ، وعلناً في أحيان قليلة ، بالخيانة والعمالة للرأسمالية  
العالمية ، وريائه هو الزعيم الذي أخذ على عاتقه مهمة تصفية المعسكر  
الذي ينتسب اليه . أما خصومه فانهم لا يخفون سعادتهم لان شعوب  
المعسكر الشيوعي قد انقلبت عليه ، واختارت طريق الرأسمالية ، فما  
يحدث الآن هو في نظرهم نهاية القصوة بين المعسكرين والتضاد بين  
الايدولوجيين ، لا من أجل تحقيق الوفاق بينهما ، بل لصالح أحدهما  
وعلى حساب الآخر ، وهم يؤكدون أن النتيجة الواضحة للتحول العاسم  
في عام ١٩٨٩ هي الانتصار النهائي للرأسمالية ، وأن الاحداث قد  
أثبتت بصورة لا تقبل الجدل أن الرأسمالية هي «النظام الطبيعي»  
للمجتمع الانساني ، أما الشيوعية فهي عرض زائل أو «موضة» مزعجة  
ثلثت مسيطرة بقوة الحديد والنار في مجتمعات معينة خلال بضعة عقود  
من السنين ، لا تعد بمقياس التاريخ البشري شيئاً يذكر ، ولكن كان لابد  
لهذه الايديولوجية الشاذة أن تنتهي يوماً ما ، وما هي ذي الاحداث  
تعلن انقاسها بصوت موه ، لكن يعود البشر جميعاً ، دون تفرقة بين  
معسكر وآخر ، الى «نظامهم الطبيعي» .

هذه كلها ، في رأيي ، تحليلات متسعة ، قصيرة النظر ، والمشكلة  
فيها كلها ، سواء تلك التي يقوم بها أنصار جورباتشوف أم خصومه ،  
هي انها تنتظر الى الوضع الراهن على أنه الوضع النهائي ، وتحكم  
على المسار البعيد للتاريخ من خلال ما يجري في المدى القصير ، وفي  
اعتقادي ان العنصر المحسوب في تلك المقامرة الكبرى التي قام بها  
جورباتشوف ، هو أن ثمارها لن تظهر الا بعد فترة غير قصيرة من  
الصدمات والخسائر ، ومن ثم فان من يصدر حكماً على التجريبية ينبغي  
عليه ألا ينخدع بتلك السلبيات الضخمة التي تقفز على السطح في  
المرحلة الاولى من تلك التحولات .

أن جورباتشوف يراهن رهانا كبيراً شديد الخطورة ، ولكنه ليس  
رهانا على أرقام مجردة تتساوى جميعاً في احتمال ظهورها أو عدم  
ظهورها ، وانما هو رهان على الطبيعة البشرية ، وعلى الاهداف التي  
ينبغي أن يسعى الانسان الى تحقيقها في المرحلة العاسمة من تاريخه ،  
فلا بد في نهاية الامر من أن يثور هذا الانسان على القمع والاضطهاد  
وحشر المتشابه والمختلف في قالب واحد ، ولكنه لابد أيضاً أن يثور

على الظلم الاجتماعي الصارخ والتفاوت العاد بين الطبقات والتسلح المهدد لاستمرار الحياة والتهديد المميت للبيئة التي ستعيش فيها أجيال الاولاد والاحفاد. على هذه الامور جميعا يراهن جورباتشوف ولا بد لكى يكسب هذا الرهان على المدى الطويل من أن يفسر قليلا أو كثيرا على المدى القصير.

ولكى أدلل على صحة هذا الافتراض الذي أحاول به أن أجعل هذا الموقف المعقد والمتقلب مفهوما بدرجة ما، وأن أضفى شيئا من المعقولة على أوضاع تبدو خارجة عن سيطرة كل عقل، دعونا تطرح سؤالا لم يطرحه أحد من قبل، ربما لأنه يبدو سؤالا شديد السذاجة، مع أنه ينطوي فى رأى على كثير من مفاتيح اللغز: فما الذي أرغم جورباتشوف على أن يفعل ما فعل؟ لقد انتخب جورباتشوف رئيسا بعد تشيرينينكو، الذي كان ميتا حيا، وظل طوال حكمه القصير راقدا على فراش المرض. وتشيرينينكو جاء بعد أندريوف، الذى كان بدوره يحمل منذ البداية بذور داء قاتل أودى بحياته بعد وقت قصير، كذلك فإن أندريوف جاء بعد بروجنيف، الذي كان فى السنوات الاخيرة من حكمه جث تتظاهر بأنها حية، وكان واضحاً أن قراء البدينية والذهنية لا تسمح له بأن يدير مزعة اللواجن، لا معسكرا عالميا عظيم القوة قادح المسؤوليات.

جاء جورباتشوف الى الحكم شابا فى الرابعة والخمسين «بالقياس الى الموتى الاحياء الذين سبقوه»، وكان يكفيه أن يعطى الحكم مزيدا من الحيوية، ويسير فى الخط الذى انتهجه سابقوه بهمة أعظم، ونشاط أكبر، حتى يكون قد أنجز شيئا هاما يميزه بوضوح عن أسلافه. ولكنه لم يقبل ذلك. وإنما اختار عمدا أن يسير فى طريق مختلف «نوعيا» عن ذلك الذي سار فيه أي زعيم سوفياتى آخر منذ لينين.

وإن كان جورباتشوف قد سار على درب أسلافه، مع إعطاء الحكم مزيدا من الحيوية والشباب، لما تعرض لشيء من المتاعب التي تعصف الآن بالمعسكر الشرقي. واعتقد أنه كان يستطيع - نظريا - أن يفعل ذلك . فكل ما يقال الآن عن أن هذا التغيير الذى أحدثه جورباتشوف كان حتميا بسبب المتاعب الاقتصادية الهائلة التي تواجهها الكتلة الشرقية، أو حاجة شعوب هذه الكتلة الى الحرية - كل هذا، وإن كان صحيحا كل الصحة، لا يكفى لتفسير ما حدث، فقد ظلت هذه الشعوب محرومة من التعددية ومن حرية التعبير وحرية السفر والتنقل أكثر من

أربعين عاما، ورغم ذلك فقد استطاع النظام أن يستمر، وحين كانت تقوم فيها انتفاضات شعبية، كما حدث في المجر عام ١٩٥٦ وفى تشكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨، كانت الدبابات السوفياتية تتكفل بسحق كل صوت معارض. وكذلك كانت المتاعب الاقتصادية واضحة منذ زمن طويل، ومع ذلك ظل النظام متماسكا أمام العالم، وكان بفضل ثوته العسكرية يؤلف معسكرا جبارا يعمل له خصومه ألف حساب.

أجل، كان فى استطاعة جورباتشوف أن يكون امتدادا أكثر شبابا وحيوية، لعهد بريجنيف، ومهما واجه من متاعب فإنها لن تكون أسوأ من تلك التي استطاع المعسكر كله تحملها طوال ستة عشر عاما من «عصر الجمود». وكان فى استطاعته، باستخدام أساليب القوة والتمويه السائدة من قبل، أن يسير في طريق مأمون، ويجنب نفسه كل ما يتعرض له الآن من مشكلات. ولكنه لم يفعل، واختار عامدا السير في طريق التغيير الجذري، بكل ما ينطوي عليه من مخاطر جسيمة.

بل انه خطط بدقة واحكام لهذا التغيير الذي تعدد أحداثه، ونظم خطواته بطريقة عقلانية: فبدأ بسياسة «الجلاستنوست»، أى العلانية أو المصارحة أو المكاشفة، ولأول مرة وجد الانسان، في الدولة الام داخل المعسكر الاشتراكي، أن في استطاعته التعبير بحرية تامة هنا يعاني من متاعب، ويوجه الانتقادات الحادة الى المسؤولين عن هذه المعاناة . دون أن يلحقه أذى أو ينقى الى أقصى الارض. وكانت تلك هي الخطوة الاولى، والمنطقية، نحو التحول الاساسى، وهي التي هيأت الجو عقيليا ونفسيا لخطوات أخرى تهز الامس التي قام عليها المجتمع. وكان من الطبيعي أن تمتد الخطوة الاولى لفترة طويلة، تزيد عن ثلاث سنوات، إذ أن هذا هو ما تقتضيه التهيئة الذهنية للعلايين من البشر، من أجل إزالة آثار عشرات السنين من الخوف من توجيه النقد، والجمود إزاء التغيير، والسلبية التامة في مواجهة صناع القرار.

وكانت المرحلة التالية، والعاسمة، هي إعطاء الضوء الأخضر للتغيير في كل بلد يتردد من بلدان المعسكر الاشتراكي: فقد أخذ يلوح الى عدم رضائه عن القيادات الجامدة، ويشير بعبارات واضحة الى أن القوات السوفياتية لن تتدخل في أية أحداث تقع داخل هذا المعسكر. وسرعان ما التقطت شعوب هذه الكتلة، التي كانت من الأصل معبأة، إشارات الواضحة، وبدأت الاصنام الجامدة فيها تنهارى واحدا بعد الآخر، فمتهم من الشعب في هنو، ومنهم من نهي عن منصبة بعد اجماع

شعبي تجلى في مظاهرات عارمة، وآخرهم (حتى كتابة هذه السطور) اثر المكابرة، ولم يتزحزح عن موقعه إلا بعد أن سلط على أهله زبانية الشر الذين كان «يدخرهم ليوم مطير»، كما يقول التعبير الاميركي الشائع، فكانت نهايته بنفس القسوة والدموية التي مارسها تجاه شعبه

كانت حركة التغيير الهائلة في المعسكر الاشتراكي اذن متعددة، وكان في استطاعة جورباتشوف أن يحتفظ بالاوضاع الجامدة السابقة، مدة أطول بكثير، ولكنه اثر أن يخوض مقاومة التحول الحاسم. ومع ذلك فان قوى التغيير حالما تتطلق من عقالها بعد طول احتباس، يمكن أن تخرج عن السيطرة، وتتخذ مسارات غير محسوبة. فهل أفلت المارد من القمقم، وانقلب على من فتح له قفوة الزجاجة؟ وهل يسير تداعي الاحداث بشكل طليق ويصوره غير منضبطة منذ اللحظة التي أضاء فيها جورباتشوف الضوء الأخضر أمام قوى التغيير؟

ان الاجابة عن هذه التساؤلات بالايجاب أو السلب تكاد تكون مستحيلة في اللحظة الراهنة. ولكن الامر المؤكد هو أن جورباتشوف قام بمقاومة تاريخية كبرى، كانت له فيها حساباته الذكية بعيدة النظر، ولكن احتمالات الخسارة واردة في كل مقاومة، مهما كانت بدقة الحساب فيها، لاسيما وأن أعداءه يعملون بكل طاقاتهم من أجل إفساد هذه الحسابات. وكل ما يستطيع الكاتب أن يفعله، في مرحلة الاحداث الساخنة التي نمر بها الان، هو أن يحلل مختلف عناصر الموقف، ويقدر احتمالاته الممكنة، كيما يساعد القارئ على فهم الاحداث المتلاحقة بصورة أعمق، ويترك له مهمة استخلاص النتائج بنفسه.

وهذا يعني هو مااستحاول القيام به في الفصول التالية: فلا بد من البدء بتقديم تفسير للتغيرات العاسفة التي وقعت بالفعل، يليه محاولة لبحث تأثير هذه التغيرات بالنسبة الى مستقبل العالم الاشتراكي، والعالم الرأسمالي، والعالم الثالث، مع التركيز على الوطن العربي بوجه خاص. وأخيرا تأتي أصعب المحاولات وأعتددا، وهي المخاطرة باستخلاص مجموعة من التوقعات عن شكل العالم في عقد التسعينات، بعد أن تكون تلك التغيرات قد أخذت مداها، وأصبحت حقائق راسخة في عالم القد.



## الفصل الثانى

# لعنة التسليح

قلت فى الفصل السابق أن جورباتشوف كان يستطيع ، من الوجهة النظرية ، أن يحافظ على الاوضاع التي ظلت سائدة في الكتلة الشرقية منذ الخمسينات ، وفي بلاده قبل ذلك ، وأن أية صعوبات كانت تواجه أنظمة تلك البلاد في المرحلة التي سبقت ثورته التاريخية مباشرة ، ما كانت لتتجاوز ما سبق أن مرت به من مشاكل طوال العقود السابقة . ولكن هذا الفرض النظري يعنى تجميد الاوضاع الي ما لانهاية ، ويعنى الحكم على النظام الاشتراكى كله بالتحجر في وقت تجتاح فيه العالم ثورة علمية وتكنولوجية ستنتقل به خلال القرن القادم الى انماط من الحياة تبدو معها أنماطنا الحالية عتيقة ، وربما بدائية . ومن المؤكد أن عملية اختيار جورباتشوف زعيما للاتحاد السوفيتى كانت منذ البدء دليلا على قوة ارادة التغيير في هذا البلد الكبير . فمن المرجح ، إن لم تقع مفاجأة ، أن يكون هذا الرجل نفسه ، أو واحد ممن يسيرون على نهجه ، هو الذى يقود بلاده عند مطلع القرن الحادى والعشرين . وهكذا ، اختيار الرجل على أساس أن مهمته هي العبور إلى المستقبل ، ولابد أن الذين اختاروه كانوا على وعى بأن أوان التغيير قد آن ، وبأن هناك ظروفنا هي التي تحتم هذا التحول الحاسم .

ويمكن القول انن أن جورباتشوف، قد جاء الى السلطة وهو يحمل تفويضاً بإحداث تحول هام في أسلوب الحكم . خير أن الرجل تجاوز هذا التفويض بمراحل ، وكان العامل الرئيسي الذي ساعده على ذلك أن لديه رؤية كونية شاملة ، فالتغيير في نظره يبدأ أولاً من الداخل ، من بلاده ذاتها ، ثم ينتقل الى بقية البلاد الاشتراكية ، وبعد ذلك تمتد اشعاعاته حتما الى العالم الغربي الرأسمالي ، ومن ثم الى العالم الثالث . وسواء تمكن جورباتشوف من تجسيد رؤيته هذه في عالم الواقع ، أم أخفق في ذلك لسبب أو آخر ، فإن الدلائل كلها تشير الى أن البشرية لن تستطيع أن تشرق طريقها بأمان في القرن القادم إلا إذا تمكنت من وضع نظام جديد للعلاقات بين الدول ، يركز على تحقيق توازن بين قدرة الانسان على التحكم في تصوفاته ، وضبط علاقاته مع الآخرين بطريقة حضارية ( وهي حالياً قدرة متخلفة الى حد بعيد ) ، وبين قدرته على التحكم في الطبيعة المادية وتسخيرها لخدمة أغراضه ( وهي حالياً قدرة متقدمة الى حد هائل ) .

فما هي إذن تلك الاسباب التي جعلت هذه الرؤية الجديدة ضرورية ملحة ؟ وما العوامل التي دفعت جورباتشوف الى تلك المقامرة الكبرى التي اذهلت الخصوم قبل الاصدقاء ، والتي قلبت جميع الحسابات التقليدية ، على صعيد السياسات المحلية والعالمية . رأساً على عقب ؟ لنبدأ أولاً بأهم الاسباب وأهمها ، وأعنى به الحاجة الملحة الى إنهاء سباق التسلح . فقد فرض هذا السباق الشيطاني على العالم في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، مع أن ميثاق الأمم المتحدة الذي أعلن في نهاية تلك الحرب كان يشير بوضوح الى هدف إنهاء كافة الحروب وإقامة العلاقات بين الدول على أساس السلام الدائم . ولكن الحرب الباردة سرعان ما ابتكرت صيغة أخرى في العلاقات الدولية . وخاصة بين العسكريين الكبارين ، هي علاقة الخوف المتبادل ، والردع المتبادل : أي أن كلا منهما يرهب الآخر ويمتنع من مهاجمته عن طريق تهديده بالدمار الشامل ، فتكون النتيجة استمرار السلام ، ولكنه سلام متوتر يهدد في أي لحظة بالانفجار .

ولكي نكون موضوعيين فلنقل أن صاحب المصلحة في هذا الطابع الذي اتخذته الحرب الباردة كان الولايات المتحدة وليس الاتحاد السوفياتي . خير أن السوفيات لم يكن في استطاعتهم أن ينفوا مكتولى الأيدي إزاء التصعيد الأميركي للتسلح ، فاندمجوا في اللعبة

على الرغم من الاضرار الفادحة التي الحقها بهم التسليح المكثف . وكان السياسى الوحيد الذي قرر أن يوقف هذه اللعبة بتخطيط بارع هو جورباتشوف.

وليسمح لي القارئ بأن اورد اقتباسين مطولين من مقال كنت قد كتبته منذ خمس سنوات (مجلة العربي- يناير ١٩٨٥) بعنوان «ايدولوجية التسليح». وسيدرك القارئ بسهولة سبب هذا الاقتباس حين ينتهى من قراءته:

«ان النظام الرأسمالى يستطيع ان يتحمل نون عناء التسليح ونفقاته

الباهظة، بل ان انتاج السلاح وتطويره وتجديده المستمر من أهم العوامل التى تساعد على استمرار هذا النظام في الحياة وازدهار اقتصاده وتشغيل مصانعهِ وإيجاد فرص عمل للعاطلين فيه. واما النظام الاشتراكى فان التسليح بالنسبة اليه عبء ثَقِيل يؤثر تأثيرا واضحا في مستوى نموه. وذلك لان السلاح في هذه الحالة لا تنتجه شركة تحقق ارباحا هائلة من بيعه أو تصديره، وانما تنتجه الدولة التى تخطط اقتصادها بحيث يؤدي التوسع الزائد في أي ميدان الى التضيق في الميادين الأخرى. وهكذا فان انتاج أسلحة باهظة التكاليف، في المجتمع الاشتراكي، لابد ان تقطع نفقاته من قوت الناس ومن ملابسهم ومسكنهم وسائر الخدمات التي تقدم اليهم.. ان التطوير المستمر للأسلحة يحدث أولا في البلاد الرأسمالية. والقنبلة الذرية، ثم الهيدروجينية ، والطائرات الأسرع من الصوت، كل ذلك بدأت به بلاد رأسمالية.. هذا التطوير المستمر لايعنى فقط مزيدا من الروح العدوانية لدى مبتكريه، بل انه موجه في الأساس نحو الخصوم، والهدف الاساسى منه- في رأيي- ليس عسكريا فحسب، وانما هو أيضا ايدولوجى واقتصادي. فقد أصبح التوازن الدولي يحتم على كل من القوتين العظميين أن تلحق بالآخرى في قدراتها العسكرية. وكل تصعيد في مستوى التسليح ونفقاته يعنى مزيدا من الازهاق لاقتصاد المعسكر الشرقي، ويعني اقتطاعا من ضرورات الحياة لدى شعوب هذا المعسكر من أجل هدف أهم: هو أن تكون هذه الدول أو لا تكون... وكما قلت ، فان الاقتصاد الاشتراكي لم تنشأ فكرته أصلا من أجل عالم تسوده المنافسة العسكرية وصراعات الحياة والموت. بل أن مؤسسيه تصوروا قيام تنافس سلمي بين الرأسمالية والاشتراكية ، وينوا تنبؤاتهم بحتية انتصار الاشتراكية

على اساس فكرة المنافسة السلمية».

ثم أضفت في موضع آخر من هذا المقال:

«استطاع المعسكر الرأسمالي بالفعل أن يوقف مسيرة المعسكر  
الخصم، بل أن يوسع الهوة المعيشية التي تفصله عنه. وكل من يزور  
بلدان المعسكر الاشتراكي ويقارنها بالبلاد الرأسمالية المتقدمة، لابد أن  
يصدمه الفارق الهائل في مستوى المعيشة بين الجانبين.. هذا القصور  
لا يرجع الا الى الاستنزاف المتعمد الذي يفرضه النظام الرأسمالي على  
إقتصاد المعسكر الخصم في ميدان التسليح، الذي أصبح الآن باهظ  
التكاليف. بل أن نقص الاستهلاك الذي يلاحظه الانسان العادي بسهولة  
في عالم لم تعد تقوم فيه حواجز بين المجتمعات ذات الانظمة المختلفة  
هو المسؤول عن عدم الاستقرار وعن تلك الثورات التي تشب من أن  
آخر في بلاد المعسكر الاشتراكي ، كالمجر وتشيكوسلوفاكيا ، وأخيرا  
بولندا ، ونتيجة لتلك الثورات تفرض السلطات مزيدا من القيود ،  
فيؤدي ذلك إلى مزيد من الغضب المكتوم ، وهكذا تستمر الحلقة  
الجهنمية في تضيق الخناق على هذا المعسكر ، بعد أن نجح المعسكر  
الرأسمالي في فرضها على خصومه حتى يلعبوا لعبة الصراع الدولي  
بقواعده هو ، وعلى أرضه هو .

هذا الكلام قيل منذ خمس سنوات ، ولعل القارئ قد أدرك انه يلقي  
ضوبا واضحا ، منذ ذلك الوقت المبكر ، على الكثير مما يقع اليوم من  
أحداث في الاتحاد السوفياتي وبقية بلاد المعسكر الاشتراكي .  
ان الحرب الباردة اختراع اميركي صرف . وكل من عرف شيئا عن  
أحداث الحرب العالمية الثانية يعلم أن اميركا لم تطلق في داخلها  
رصاصة واحدة طوال هذه الحرب ، على حين ان الاتحاد السوفياتي قد  
اكتسحت معظم اراضيها واحرقت حقوله وقراه وفقد أكثر من عشرين  
مليون قتيل ، ولقد تمكنت أجهزة الاعلام الاميركية من خلق صورة وهمية  
عن الخطر الزاحف من أرض السوفيات ، والذي يهدد بابتلاع العالم  
مالم يتم رده بقوة السلاح ، وانطلقت هذه الاسطورة على الشعوب في  
أوروبا الغربية وفي اميركا بوجه خاص ، مع انها لم تكن الا اكذوبة  
كبيرة . وأغلب الظن أن مروجيها انفسهم كانوا يعلمون ذلك ، ولكن لهم  
مصلحة مؤكدة في تثبيتها في الأذهان . وذلك لان الشعب السوفياتي  
مازال حتى هذه اللحظة ، وبعد مضي خمسة وأربعين عاما على انتهاء  
تلك الحرب ، يعيش الامها ومرارتها . وإذا كانت فنون الشعوب وأدابها  
خير شاهد على نفسياتها ، فمن السهل ان يلاحظ المرء ان فظائع

الحرب العالمية الثانية مازالت حية بقوة في وعي الشعب السوفياتي ولا وعيه معا ، بدليل أنها هي الموضوع الذي تدور حوله نسبة كبيرة من الافلام السينمائية والاعمال الادبية السوفياتية حتى اليوم ، وهو أمر يثير في كثير من الاحيان دهشة بالغة لدى مشاهدي هذه الاعمال وقرائنها من الاجانب .

وهكذا فإن العامل المادي ، المتمثل في الاعباء الاقتصادية الفادحة. والعامل المعنوي ، المتمثل في النكوى الاليمة والحية لاهوال الحرب الاخيرة كليهما يؤكد ان اسطورة « القطر الروسي » على الغرب ، وعلى العالم ، لم تكن الا محاولة يارعة لتبرير سباق التسلح ، الذي يؤدي الي تشغيل المصانع وتخفيف البطالة وانعاش الاقتصاد في بلد رأسمالي، وه يبرمج « الرأي العام في اتجاه يساعده على دفع الضرائب المتزايدة التي تقتضيها ميزانيات التسلح.

ولقد كانت نروة التصعيد في سباق التسلح هي ذلك البرنامج الشيطاني الذي عرف باسم « حرب النجوم » والذي يستهدف اقامة نظام لتدمير صواريخ العدو بأشعة الليزر في الفضاء قبل وصولها الى اهدافها ، وكان واضعو هذا النظام في عهد « الرئيس الكاويوي» رونالد ريجان مؤمنين بأن خططهم الجهنمية لن تجلب لهم الا المكاسب :

فهى اولا تضمن اتفاق عشرات المليارات كل عام على هذا البرنامج وحده . بالاضافة الى ما ينفق علي برامج التسلح وبرامج الفضاء الاخرى ، وتحقق انتعاشا هائلا لمجموعة ضخمة من الشركات المرتبطة به على نحو مباشر أو غير مباشر . ومن جهة اخرى فسوف يكون السوفيات مرغمين على التحرك لمواجهة هذا البرنامج ، وعندئذ تكون النتيجة إحد أمرين : فلو نجحوا سيكونون قد أرهقوا اقتصادهم ، الذي هو أصلا غير مهيا لذلك ، الى حد يهدد بحدوث الثورة في تلك المجتمعات التي سيصل مستوى معيشتها عندئذ الى الحضيض ، ولو اخلقوا فسوف ينفرد الاميريكيون بهذه الميزة الاستراتيجية الهائلة ، ميزة القدرة على تدمير صواريخ العدو وهي في الفضاء الخارجي ، مما يجعل ايديهم طليقة كيما تعيث بالعالم كيفما شات ، ويضع حدا لوضع التنافس العسكري المتكافئ الذي ساد منذ الحرب العالمية الثانية . وفي اعتقادي الخاص أن هذا العامل بالذات كان له دور أكبر بكثير مما يتصور معظم الناس في تحديد الاتجاه الذي سارت فيه سياسة جورياتشوف منذ بداية حكمه . فقد فرضت عليه السياسة الأميركية في

عهد ريجان أن يختار بين أمرين كليهما مر : فاما ان يدخل في منافسة ستقضى علي البقية الباقية من قدرة اقتصاد بلاده والكتلة الشرقية كلها علي الصمود ، واما ان يتراجع عن المنافسة ويترك الخصوم طلقاء يتحكمون في عالم الغد كما يشاؤون .

وكان القرار الذكي الذي اختاره ، والذي اعتمد فيه علي تراث النزعة السلمية وكرامية الحرب المتاصل في بلاده ، وعلي مخاوف الاوروبيين من أن تكون بلادهم في الساحة الاولى لاية حرب نووية بين العملاقين - كان هذا القرار هو أن يشن حملة سلام كبرى ، يرغم فيها سفور التسليح في الولايات المتحدة علي التراجع التدريجي رغم انولهم

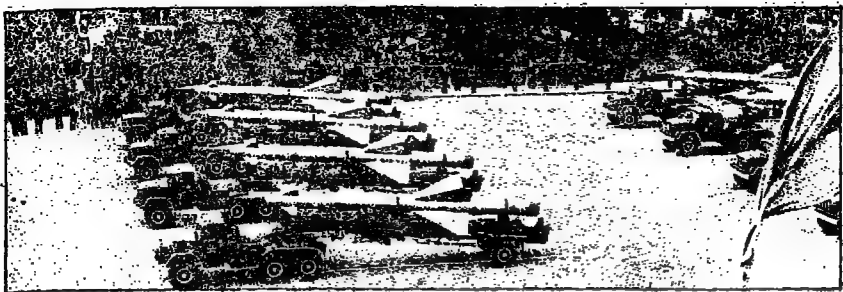
كان الاسلوب الذي اتبعه جورباتشوف في ابطاء قطار التسليح الذي كان يزداد اندفاعا عاما بعد عام ، اسلوبا بارعا بحق ، وهو يستحق في رأي دراسة متعمقة يقوم بها المتخصصون في العلوم السياسية وفي فن التفاوض بوجه خاص ، بوصفه نموذجا فريدا للطريقة التي يمكن بها إرغام عملاق جبار علي التخلي عن مواقفه وقبول موافق الخصم دون أن يتمكن من التهرب او المقاومة . ويمكن تلخيص هذا الاسلوب علي النحو الاتي : كان جورباتشوف يبدا ( وادما كان هو البادئ ) باقتراح في ميدان نزع السلاح يثير تعاطفا شعبيا علي اوسع نطاق ، وخاصة في أوروبا ، كمقد معاهدة لخفض عدد الصواريخ بعيدة المدى ، أو تدمير الصواريخ المتوسطة « التي تخشاهما أوروبا بوجه خاص » . وبالمطيع يكون رد الفعل الاميريكي المباشر هو الرفض ، وعادة « يكون » هذا الرفض مصحوبا بحجة تبرره ، مثل ضرورة التفتيش علي الصواريخ في مواقعها خمنانا لعدم الخداع ، وحين يشع الاميريكيون شرطا كهذا ، فانهم يعلمون جيدا أن الجانب السوفياتي ، الذي ظل دائما يخشى التغلغل والتجسس الاميريكي في بلاده ، سيرفضه حتما . ويظل جورباتشوف يلح ، ويظل الاميريكيون مصرين علي شرطهم ، حتى يرسخ هذا الشرط في اذهان العالم.

وفجأة يعلن جورباتشوف قبول هذا الشرط ، ولايجد الاميريكيون مقرا من توقيع المعاهدة بعد أن يكونوا قد فقدوا ذريعة الرفض امام العالم اجمع . وبالمثل فان مشروعات كثيرة لنزع السلاح كانت تصطدم دائما برفض اميريكي مبنئ علي شروط مثل ضرورة الاقلال من حجم القوات التقليدية السوفياتية في أوروبا . ويعد أن يرسخ هذا الشرط في اذهان

العالم ، يعلن جورباتشوف فجأة عن خلوص كبير في قراته واسلحته التقليدية ، فيسقط في يد المتشدين ، ولا يمكن الا الاستجابة لطلبه .  
ولقد كان يبدو أن جورباتشوف لا يقدم ، في مسألة نزع السلاح ، الا التنازلات ، وأنه يستجيب دائما للشروط الاميركية . ولكن الامر الذي ينبغي ان ينتبه اليه من ينتقدونه على هذه التنازلات ، أن الهزيمة في هذا الميدان انتصار ، والضعف فيه قوة . فلو وقف السوفييات بدورهم موقف التشدد لكان معنى ذلك تصعيد سباق التسلح ، وتديد موارد هائلة يحتاج اليها اقتصادهم المخطط مركزيا اشد الاحتياج ، على صنع موديلات جديدة من الاسلحة سرعان ما تصبح عديمة الجدوى بعد ظهور « جيل » الاسلحة الاحدث منها . اما التنازل ، الذي يبدو في ظاهره هزيمة ، فهو في حقيقة الامر انتصار كبير ، إذ أنه يرفع الخصم على التراجع وقبول الشروط التي وضعها هو ذاته ، ويضعف اقتصاد الخصم الذي يتعصفه التسلح المكثف ، بينما يقوى اقتصاد الطرف المتنازل ، فيجنى من هذا الضعف الظاهري مزيدا من القوة .  
يمثل هذه الاساليب البارة استطاع جورباتشوف ان يزيل بالتدريج وهم « الخطر السوفيياتي » الذي رسخته اجهزة الاعلام الغربية ، والاميركية بوجه خاص ، في اذهان الناس في العالم غير الاشتراكي . ولقد كان ذلك الخطر المزعوم وهما بالفعل ، لا لان السوفييات ملائكة ، بل لانهم اكثر شعوب الارض معاناة من ويلات الحروب ، فضلا عن الاستنزاف الذي لايتحملة اقتصادهم . ولكن هذه الاسطورة كانت ضرورية لكي تقوم الاحلاف العسكرية ، وتعمل مصانع الاسلحة بكامل طاقتها ، وتنهأ الحياة بفضل تجارة الموت .

كل هذا بدده جورباتشوف بافعال واقعية ملموسة . ولكم حاول المتشددون التشكيك في هذه الافعال ، ولكنه كان يثبت جديته بمبادرات متجددة بلا انقطاع . كانت قصة الذئب والعمل تتكرر ، ولكن بطريقة معكوسة . اذا كان العمل في هذه المرة واعيا ، فلم يسمح للذئب بأن يلتهمه ، بل لم يعطه فرصة اتهامه بتعكير الماء الذي يشربه .

وما أن انقضت سنوات قلائل من حكم جورباتشوف ، حتى اختلفت تماما صورة « الذئب الروسي » المسلح حتى الاسنان ، والمتاهب دائما للعنوان ، واصبحت شعوب العالم مقتنعة بأن جورباتشوف يريد بحق سلاما شاملا ، ويرقن كل ما يقول في هذا الصدد بالافعال . وكان امتناعه عن التدخل في احداث اوربا الشرقية الاخيرة ، في جانب



سباق التسلح المجنون نرف موارد الاتحاد السوفيتى لعشرات من السنين

منه ، تمبيرا من الرفض النهائي لسياسة حل المنازعات بالقوة المسلحة ، وتمسكا بالصورة السلمية التي رسمها بصير وحرص شديدتين طوال السنوات السابقة . بل أن اميركا والاتحاد السوفيتى تبادلوا الادوار في الشهر الاخير من العام الذي انقضى : اذ تدخلت الجيوش الاميركية تدخلًا سافرا في بنما ، وسأقت من اجل ذلك حجة لا تختلف عن حجج حناة الاستعماريين في القرن التاسع عشر ، على حين ان القوات السوفياتية رفضت اطلاق رصاصه واحدة في اوربوا الشرقية ، بل رفضت التدخل الذي اغرتها عليه اميركا وفرنسا ، ضد الحاكم الطاغية في رومانيا ، ولم تقع في الفخ ، واصبحت صورة المعتدي ملتصقة ، في نظر العالم ، باميركا وحدها .

في هذا الجو ، يحاول حقور التسلح ، مثل ديك تشينى ، وزير الدفاع الاميركي ، ان يعولوا من أن لآخر الى عزف النعمة القديمة ، ولاسيما حين يقترب موعد تحديد ميزانية التسلح ، ولكن صيحاتهم لم تعد تجد من يستمع اليها . ومن المؤكد ان أي حديث عن « حرب النجوم » قد أصبح في ايامنا هذه صوتا نشارزا وسط جو التهدة والتفاهم الذي اشاعته سياسة جورباتشوف وانبثت به الامال في سلام دائم .



ويكاد المرء يلمح في تصريحات المسؤولين الاميركيين نوعا من العرص المكتوم على بقاء حلف وارسو العسكري ، على الرغم من انه هو الحلف المناوئ لهم . اذ كيف يمكن تبرير المبالغ الضخمة التي تستقطع كضرائب من المواطن الاميركي من اجل صنع السلاح ، مالم يكن هناك حلف مضاد يصور للناس على انه مصدر خطر دائم ؟ لقد ظلت الاستراتيجية الاميركية تستهدف مواجهة حلف وارسو والتفوق عليه . ولكن حين ظهرت بوادر لحل هذا الحلف او تغيير طبيعته العسكرية ، بدأ القلق ينتاب واضعي هذه الاستراتيجية من الا يجدوا امامهم « خصما » يتسلحون من اجله . وهكذا فان حلف وارسو هو ، بالنسبة الى العسكرية الغربية ، خصمها وميور وجودها في آن واحد . ومن اجل هذا كان المرء يستشعر ، في تصريحات بعض القادة الغربيين ، نفمة قلق خفي من الاحداث الاخيرة التي يفترض انها كانت انتصارا كبيرا لهم . لقد كان سياق التسليح إذن عاملا حاسما في ذلك التفسير الثوري الذي ادخله جورباتشوف على سياسة بلاده ، وكان في الوقت ذاته من العوامل الهامة التي ادت الى سلسلة الانقلابات المفاجئة في بلدان المعسكر الاشتراكي . ذلك لان اعباء التسليح كانت توزع على الجميع ، وكان لكل بلد اشتراكي نصيبه من تلك النفقات الباهظة التي تتكلفتها عملية مجازاة التطور السريع والمتلاحق في صنع ادوات الدمار . ولم يكن اسهام هذه الدول في اعباء التسليح يتخذ بالضرورة شكل المشاركة في صنع السلاح او في الميزانية العسكرية ، بل كان في احيان كثيرة يتخذ شكل تقديم منتجات وسلع من انتاجها الى دول اخرى في المعسكر نفسه ، تعويضا لهذه الاخيرة عن الخسائر التي تتكبدها في صنع السلاح، وهكذا كانت الفسارة تعم الجميع ، ويترتب عليها حتما تدهور عام في الاقتصاد ، وانخفاض في مستويات المعيشة ، وانقار مواطني أى بلد معين لكثير من المواد الاساسية التي يعلمون ان بلادهم تنتجها بوفرة .

ومع هذا كله فان تأكيدنا لاهمية سياق التسليح في تفسير الاحداث الاخيرة سواء منها « هجوم السلام » الكاسح الذي يقوم به جورباتشوف ، او تمدد البلاد الاشتراكية العنيف ضد انظمتها - هذا التأكيد ، مع اهميته القصوى ، لا ينبغي ان يحجب عن اذهاننا مجموعة اخرى من العوامل الهامة . ذلك لان التركيز على الاضرار المترتبة على التسليح المرهق ، قد يولد لدى القارئ اعتقادا بان سوء الاوضاع الاقتصادية

وربما الاجتماعية والسياسة ايضا ، كان أمرا مقروضا من الخارج على هذا المعسكر ، وبأن أنظمة هذه البلدان كانت شخصية خطة ذكية رسمها المعسكر المضاد . ولكن هذه النتيجة أبعد ما تكون عما أرمي اليه . حقيقة الأمر انه كانت هناك ، إلى جانب العامل الخارجي السابق ، أخطاء داخلية فادحة ، وكان النظام الاشتراكي يتعرض لاسوأ تطبيق والنظرة تشوية يمكن تصوره ، على أيدي من يفترض انهم حراسه والامناء عليه .

ولا بد ان يكون لهذا الموضوع الهام حديث آخر حين نواصل عرضنا لاسباب هذا الانقلاب المفاجئ في اوضاع المعسكر الاشتراكي .

## الفصل الثالث

# الخلل فى الداخل

لا جدال فى أن سباق التسلح قد وضع الكتلة الشرقية فى مأزق يجعلها عاجزة عن تحقيق الكثير من امكانات تجربتها الاشتراكية. ذلك لان مؤسسي هذه التجربة، مثل ماركس وانجلز ولينين، لم يعملوا حسابا للتنافس فى ظل حرب باردة وتسلح ثقيل تمتص تكاليفه عرق الناس وجهدهم عاما بعد عام ، بل تخيلوا جوا من التنافس السلمى، وتفاطروا بحتمية انتصار الاشتراكية على الرأسمالية فى مثل هذا الجور. ولقد تمثلت براعة النظام الرأسمالى فى خلق أوضاع لم تخطر ببال هؤلاء المؤسسين، يدور فى ظلها التنافس داخل اطار مختلف تماما عن ذلك الذى تصوره النظرية الاشتراكية، فنجح بذلك فى ابطاء نمو المجتمعات الاشتراكية وإبعادها عن السباق معه ولرض الخلف عليها فى جرائب كثيرة من حياتها.

ويستطيع القارئ العربى أن يستوعب هذه النقطة بسهولة تذكر ما قام به الاستعمار العالمى تجاه مجتمعاتنا العربية من أجل إيقاف نموها .

فبعد أن أيقن أن عصر الاحتلال المباشر لاراضى الغير قد ولى، وأن المنطقة العربية موقعا استراتيجيا عظيم الاعمية بين الشرق والغرب الجغرافيين، وبين الشرق والغرب الايديولوجيين . وعرف أن هذه المنطقة تضم أغنى مخزون لأهم مصدر عالمي للطاقة، وأن موارد النفط يمكن أن تكفل لها نموا اقتصاديا واجتماعيا هائلا ، توصل الى أن ذرع اسرائيل في قلب الوطن العريس هو خير وسيلة لايقاف هذا النمو، فضلا عن أن هذا الكيان الغريب هو في الوقت ذاته ركيزة وقاعدة كبرى للاستعمار في المنطقة . ومن المؤكد أن النهضة والتنمية العربية كانتا ستتخذان طريقا أكثر ايجابية بكثير مما هو عليه الان، لو لم تكن اسرائيل قد خرزت في قلب هذه المنطقة.

لقد كان الاسلوب واحدا في الحالتين، وعن طريقه نجح الغرب الرأسمالى في خلق ظروف مصطنعة تحول دون تمكين القوي المناوئة له من تحقيق امكاناتها الكامنة. ومع ذلك فان هذا لايعنى على الاطلاق أن اخفاق التنمية ، في الحالتين أيضا، لم يكن له من سبب سوى تلك المؤامرة الاستراتيجية الكبرى. فقد كانت الاخطاء الداخلية فاسدة . ولما كان الحديث عن التجربة العربية خارجا عن إطار. بحثنا الحالي، فسنباحول الان استخلاص أهم العوامل الداخلية التى أدت الى هذا الوضع الذي يبدو في نظر العالم كما لو كان انهيارا تاما للتجربة الاشتراكية ككل.

لقد كان العامل الاقتصادى حاسما في الثورة التي زلزلت أنظمة الدول الاشتراكية خلال شهور قلائل، ولكن هذا العامل لن يعالج مستقلا في هذا البحث الذي نقوم به ، وذلك لسببين : أولهما أن كاتب هذه السطور لايعرف عنه، بحكم تكوينه الثقافى، إلا القشور. فالبحث في تأثير ابتعاد الاقتصاد الاشتراكي عن نظام السوق، وغيوب نظام تحديد الاسعار، والمشكلات المترتبة على التخطيط المركزي، الى آخر هذه الموضوعات الاقتصادية ذات الاعمية العظمى، يفوق قدراتى الى حد

لايسمح لي باصدار أي حكم مفيد بشأنه. غير أن هناك سببا آخر هاما لعدم لجوئي الى معالجة العامل الاقتصادي علي نحو مستقل. هذا السبب هو أن الانسان الذي خرج يتظاهر في الشوارع مع مئات الالوف من أقرانه في الساحات الكبرى بمدينة بودابست أو براغ، والذي عرض صدره للرصاص في تيمشواراء لم يكن يثور من أجل عامل متزل عن بقية العوامل فالكيان الانساني وحدة لا تتجزأ، وحين يخاطر المرء بحياته من أجل أحداث تغيير جذري في مجتمعه، فانه يفعل ذلك بكيانه كله، ولايستجيب فقط لنداء معدته حين لاتجد ما يشبعها، أو جلده حين لايجد ما يدفعه ، وانما يستجيب أيضا لنداء عقله الذي يرفض كبث رأيه ، وروحه التي تأبى الظلم الواقع عليه. وفي الوعي السياسي والاجتماعي للمواطن العادي،لاينفصل الاقتصاد عن علاقة هذا المواطن بحكامه ورؤسائه وأقرانه ، وعن رأيه في الطريقة التي يدار بها مجتمعه ككل. وهكذا فان الاقتصاد، الذي يمكن أن يعالج مستقلا لاغراض التحليل العلمي، يكون جزءا من كل أشمل منه في الحياة الفعلية للانسان، وفي مختلف ممارساته الاجتماعية . ولما كان هذا الامر الاخير هو الذي يعطينا ، فان هذا يعطينا مبررا آخر لمعالجة موضوع الاقتصاد في سياقه الاوسع والاعم.

ولأضرب مثلا لفكرتي هذه، بالحديث عن انتاجية الانسان العامل في بلدان المعسكر الاشتراكي. هذا بالطبع موضوع يستطيع المتخصصون أن يزودونا فيه بأرقام واحصاءات وجداول دقيقة ولكن اغلب الظن ان هذه المعلومات الكمية المفيدة ستؤدي ، آخر الامر، الى تأكيد ذلك الانطباع الذي يخرج به كل من زار بلدا من هذه البلدان، وهو ان العامل- بأوسع معاني هذه الكلمة اي بمعنى كل من يمارس عملا من اي نوع- اقل انتاجية بشكل واضح من نظيره في بلاد اوروبا الغربية، ناهيك عن اميركا واليابان. فحصيله عمله محدودة، وطريقة انجازه لهذا العمل تتسم بقدر كبير من البطء والتكاسل. وعلى الرغم من أن هذا

حكم انطباعي تولد في نفس كاتب هذه السطور نتيجة زيارته لمعظم بلدان المعسكر الاشتراكي. واتلق فيه مع كثيرين غيره ممن كانت لهم مع هذه البلاد تجربة اطوله فان امثال هذه الانطباعات، حين تكون حصيلة ملاحظة دقيقة، لايجوز تجاهلها، وخاصة اذا كان الفارق واضحا بينها وبين الانطباعات التي تتكون لدى من يزور بلدا من بلدان المعسكر الغربي.

المهم في الامر أن الانتاجية الضئيلة للعامل تشكل خطورة كبرى على حياة أي مجتمع: ذلك لان ثروة هذا المجتمع هي، الى حد بعيد، حصيلة انتاج العاملين فيه. فاذا كان كل عامل في موقعه لايتحرك الا ببطء ولاينجز الا الحد الأدنى، فان المجتمع ككل لابد أن يعاني ازمات اقتصادية خانقة.

ولكننا حين نبحث في الاسباب التي تجعل قدرات العامل الانتاجية محدودة، نجد انفسنا مضطرين الى الجمع بين الميدان الاقتصادي والميدان السياسي والاجتماعي، وربما الاخلاقي، في وحدة واحدة، ففي استطاعة المرء حين يتعمق التفكير في ظاهرة التكاسل والتباطؤ هذه أن يدرك وجود نوع من المقاومة الصامتة لدى شعوب أوروبا الشرقية على الانظمة الجائرة التي كانت تحكمها. لقد كانت تلك الانظمة قمعية بكل ما تعمله الكلمة من معنى. وكان أوضح مظاهر القمع أن تنص معظم دساتيرها على أن حزبا بعينه، هو الحزب الشيوعي، ايا كانت تسميته في كل دولة على حدة، هو الحزب الحاكم، مما يترتب عليه أن يصبح أي خروج عن تعاليم ذلك الحزب أو أية محاولة لاحلال حزب آخر محله، خروجاً عن الدستور يستحق أشد العقاب. فما معنى أن يعطي أي حزب لنفسه هذا «الحق الإلهي» في أن يكون هو الحاكم الى الأبد؟ وإذا كانت مبادئه الأساسية تقول أنه هو المدافع الحقيقي عن العمال والفلاحين لانه هو الذي يمثل طبقتهم تمثيلا أميناً. وإذا كان العمال والفلاحون هم الاغلبية الساحقة في أي شعب، فلماذا لايجعل سلطته مرتكزه على

اختيار يمارسه هذا الشعب بحرية تامة؟

وطبيعة الحال فان هذا القمع الرئيسي، الذي يتمثل في ذلك الاهدار «الدستوري» لاية فرصة أمام الشعب كيما يقتار السلطة التي تحكمه، لابد أن تتفرع عنه ألوان أخرى من القمع لا تقل عنه قسوة وضراوة، فحرية الكلام والتعبير عن الرأي مصادرة الا في الحدود التي تسابير النظام. وحرية السفر محظورة الا للوفود الرسمية وفي ظل رقابة مشددة، ولقد كان لضياح هذه الحرية الاخيرة بالذات اسوأ الأثر في نفوس جماهير أوروبا الشرقية التي ترى كل بلد أوروبي غريب يكاد يفرغ سكانه خلال العطلات الصيفية لكي يوزعهم سياحيا على بقية البلدان. أما المركزية الشديدة للسلطة فتتقضى تماما على قدرة الفرد على التصرف، ولو في أضيق الحدود، فابسط مطلب يحتاج الي قرار يمكن أن يمر علي عشرات من المختلفين، حسب تدرجهم الهرمي، ولا يجاب الا بعد وقت طويل وتعقيدات ادارية مملة . ولم تكن الاضرار التي يسببها سرطان البيروقراطية مقتصرة على جهاز الدولة، بل انها كانت تولد خميرة سخط تتجدد دائما بين الجماهير.

ومن جانب اخر فان الحزب الذي جاء من اجل القضاء على الفوارق بين الطبقات، قد صنع هو نفسه تفاوتاً طبقياً صارخاً بين أعضائه وبين بقية الشعب، إذ كان أعضاء «الحزب» يتمتعون بامتيازات مادية ومعنوية ملموسة، بل كان لهم في بعض هذه البلاد امتيازات خاصة حتى في ميدان التعليم. ومن اجل حماية هذه الاوضاع الجائرة كان لابد من وضع نظام صارم يضمن اسكات الاصوات المعارضة ، والتجسس على المواطنين عن طريق زرع عملاء السلطة في مواقع العمل العادية أو تجنيدهم من داخلها، وإقامة أجهزة صارمة للامن تسهر على إقلاق راحة المواطنين وتضمن انضباطهم وتعاقبهم بقسوة لو خرجوا عن الخط المرسوم.

وليس ثمة شيء يثير نفرة الشعوب بقدر التناقض بين الشعارات

المعلنة والممارسات الفعلية لحكامها، فحين ترى الشعوب كبار «الثوار» فيها يعيشون حياة الاقطاعيين المترفين، وحين ترى أساطين الاشتراكية ينعمون بأجل الميزات «البورجوازية»، عندئذ يتجاوز ذلك التناقض طاقتهم على التحمل، ولو كان النظام يعلن على الملأ أنه رأسمالي أو اقطاعي ويعترف مقدما بالتفاوت الحاد بين الطبقات و«فلسفة» على طريقته الخاصة، لتحملته الجماهير بمزيد من رحابة الصدر، فحين يعلن الاميركيون، مثلا أنهم دولة رأسمالية تقوم على مجتمع الفرصة «وأن أساس نظامهم يقتضى أن يكون البعض من أصحاب الملايين والبعض الآخر من العاطلين المعدمين، ويسود لديهم شعاره كل واحد وشطارته»، وعندئذ لا يكون سخط الناس عميقا حين يشاهدون مظاهر البذخ التي يعيش بها آل روكفلر أو آل ديبونت، بل ربما كانت هذه المظاهر ذاتها من عوامل تقوية النظام وتدعيمه، لأنها ترسخ في نفس كل انسان «الحلم الاميركي»، وتوهمه بأن «نادي المليونيرات» ليس مغلقا، بل أن أبوابه المفتوحة ترحب بكل من يملك الموهبة المطلوبة، أو يتحين الفرصة الملائمة.

أما حين يعلن الحكام أنهم انما جاءوا من قاع الجماهير الشعبية، وأنهم يمثلون مطالب الاغلبية المسحوقة ويجسدون امنياتهم، ثم يراهم الناس يعيشون حياة مرفهة منعمة يتمتعون فيها بكل الميزات التي حرمت منها الجماهير، فعندئذ تتراكم عوامل الثورة ويغلي الاناء المكتوم.

وبطبيعة الحال فانه لا أقصد بهذه المقارنة القول انه لا توجد أسباب للسخط بين الزنوج والملونين وغيرهم ممن يعيشون على حافة الفقر في «جنة الرأسمالية» (وهم أكثر مما يتصور معظم الناس)، بل أن كل ما أعنيه هو أنه حين يكون ذلك التفاوت بين الطبقات جزءا لا يتجزأ من الفلسفة المعلنة و المعترف بها للمجتمع، تكون دواعي السخط عليه أقل مما هي في المجتمعات التي يقوم نظامها على إلغاء الفوارق



الطبقية، ويكون اصحاب السلطة فيها هم أنفسهم اوضح تجسيد لهذه الفوارق.

ولعل الكثيرين من الجيل الاوسط والاكبر في مصر وكثير من الاقطار العربية يذكرون اسم «الشيخ عاشور»، الذي كان إماما غير متميز في أحد مساجد الاسكندرية، وانتأيته في إحدى خطبه، خلال الستينات، نوبة غضب فتحدث عن الاتحاد «الاشتراكي» الذي يركب قاذبه المرسيدس وترتدى نسائهم أغلى أنواع الفراء.. الخ.. فوقع عليه اضطهاد من السلطة (اختلفت الآراء في نوعه ومداه). ولكن ما يهمنا من القصة هو أن هذا الرجل، بإمكاناته المحدودة، حين رشح نفسه بعد سنوات لعضوية المجلس النيابي فاز فوزا ساحقا. بلا مجهود، واكتسح مرشحين انفقوا في حملتهم الانتخابية ألوانا مؤلفة. وحين عاد الى ممارسة هوايته في النقد الصريح والسادج داخل المجلس، طردته منه الحكومة «بالقانون» (١). فحاول ترشيح نفسه مرة أخرى، وكان واضحا انه سيكتسح الدائرة للمرة الثانية، فاضطرت الحكومة الى «تفصيل» قانون يحول دون إعادة ترشيحه، والنتيجة التي أريد أن أحلص اليها من هذه القصة هي ان الجماهير تتعاطف بقوة وعفوية مع كل من يفضح التناقض بين الشعارات المعلنة لانظمة الحكم وبين ممارستها الفعلية.

ولكي تبرر تلك الانظمة الاشتراكية المسوخة تصرفاتها، لجأت الى نشر الدعوة الى الزهد بين الجماهير، على نحو يذكرونا كثيرا برجال الكنيسة في العصور الوسطى، الذين كانت مواعظهم كلها تدور حول العزوف عن متع الدنيا والعمل من أجل الآخرة، بينما كانوا هم أنفسهم يعيشون حياة يستمتعون فيها بكل ما تقدمه «الدنيا الفانية» من ملذات. وتجسدت هذه الدعوة على شكل عقيدة معادية للاستهلاك، فنجحت في اقناع عقول كثيرة بأن الاستهلاك يتعارض مع شعور المواطن بالمسؤولية، وتبنى هذه الدعوة عدد كبير من مثقفي العالم الثالث، حتى

اتخذت لدى البعض طابعا مضحكا مبكيا، حين اخذوا يلومون شعبا  
 كالشعب المصري، مثلا ، علي إفراطه في استهلاك الخبز  
 وطبيعة الحال فان أبعد الامور عن ذهني أن أدافع عن نمط الحياة  
 الباذخة، الذي يجعل من الاستهلاك الترفي لسلع مادية معقدة وغير  
 ضرورية علي الاطلاق، هدفا أساسيا لحياة الانسان، ولاسيما حين يكون  
 معظم افراد مجتمعه محرومين من الضرورات الأساسية في الحياة فمثل  
 هذه الحياة المفرطة في الترف ظالمة، لانها تتم دائما علي حساب شقاء  
 الآخرين، فضلا عن انها تافهة، لانها تستعيف عن الجوهر الداخلي  
 العميق بالمظهر الخارجي السطحي . ومع ذلك فليس من العدل ان  
 يتطوّر مذهب من المذاهب في التثديد بالاستهلاك الي حد يولد شعورا  
 بالذنب لدى كل من يمارسه في حدود ضيقة. ذلك لان الاستهلاك هو، في  
 نهاية المطاف، أحد المؤثرات الهامة للتصيب الذي يناله الانسان من  
 الدنيا. ومن الظلم البين أن نخدع الناس فتوهمهم بأنهم يخولون  
 مجتمعهم حين يتطلعون الي نيل نصيبهم هذا، لمجرد أن السياسة  
 الخرقاء التي يتبعها نظام ما جعلته عاجزا عن أن يضمن لشعبه  
 مستوى آدميا للمعيشة.

المهم في الامر أن القهر المعنوي والفقر المادي كانا يسيران، في  
 تلك التجربة، جنبا الي جنب، وإذا فان من غير المجدي ان نحاول فصل  
 أحدهما عن الآخر، ومن هنا كانت الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها  
 الانسان، في تلك المجتمعات، أن يقاوم النظام، ويعبر عن احتجاجه علي  
 ممارسته، هي أن يثكأ في عمله ويقلل إنتاجيته ، وكان ذلك كما قلت  
 أحد الاسباب الرئيسية لضعف الاقتصاد في الدول الاشتراكية. بل ان  
 تبادل التأثير بين القهر المعنوي والفقر المادي يؤدي الي حلقة جهنمية  
 يحلّ تدور بلا نهاية. فمقاومة القهر السياسي والاجتماعي، عن وعي أو  
 بغير وعي. بالاجوء الي التراخي في العمل ، تؤدي الي مزيد من  
 النقص في موارد المجتمع ككل، مما يزيد من شحن طاقة الضغط لدى

الجامير، فيترتب على ذلك اشتداد القمع والقهر، وتظل القصة تتكرر الى ما لا نهاية.

على أن من الخطأ القادح أن يترك الكاتب في هذا الموضوع لدى قرائه انطباعاً بأن الصورة كانت قائمة كلها، فقد حققت التجربة الاشتراكية، حتى في أحلك نعالجها، انجازات، المجانية الكاملة في التعليم والعلاج الطبي، مع رفع مستواها باستمرار، وحل مشكلات معقدة كالمواصلات والسكان بأساليب تخفف الاعباء عن عاتق الطبقات الشعبية، حتى لو كانت بعيدة عن معايير الترف كما تلهمها الشعوب المحظوظة، ورعاية الدولة للثقافة مع اتاحتها لقاعدة جماهيرية واسعة، ولعل اعظم الانجازات جميعاً هو ذلك الامان الذي يحيط بالانسان في عمله وحياته: فالمجتمع لا يعرف البطالة، والشيخوخة مؤمنة (بتشديد الميم)، ووفاء العائل لا تعنى تشريد أسرته، والاسعار المحددة مقدماً، والموحدة في كل مكان، تعطى المشتري أماناً لا يحس به الا من عانى خداع البائعين ومناوراتهم، فإذا أضفنا الى ذلك ان الاشتراكية في المعسكر الشرقي قد طبقت في بلاد كانت كلها - باستثناء تشيكوسلوفاكيا- تمثل «الريف» الاوروبي، أمكننا ان ندرك ان هذه الانجازات لم تكن بالامر الهين على الاطلاق.

على أنني أود، قبل أن أترك هذا الموضوع، أن أعلق قليلاً على ميزة الامان الاجتماعي هذه، إذ يبدو أن الامان المفرط يؤدي الى عكس الهدف المقصود منه، ويبدو أن العامل في المجتمع الذي لايمتدحه مثل هذا الامان التام يمارس عمله بحماس اكبر، ونتاجية اعظم، مع أن الذهن يميل نظرياً الى تخيل عكس ذلك، ويخيل الى أننا هنا إزاء مشكلة فلسفية في المحل الاول: فهل من الصحيح أن الانسان يحتاج الى قدر معين من الشعور بالخطر كيما يقدم أفضل ما لديه؟ هذا سؤال يكفيننا أن نطرحه الان على القارئ، لان الخوض في تفاصيله سيبعدنا كثيراً عن موضوعنا الاصلي.

لقد كانت الايجابيات كثيرة بغير شك، ومع ذلك فان المرء لا يمكنه إلا أن يأسف بمرارة لان التجربة كان في وسعها أن تحرز نجاحا يفوق ما حققته بمراحل، لو لم يكن الفساد الداخلي والخلل التنظيمي والاستبداد القيادي قد وصل فيها الى هذا الحد المؤلم. ويبدو لي أن السبب الرئيسي لهذا الخلل هو أن بلدان المعسكر الشرقي في أوروبا لم تنتقل الى الاشتراكية من خلال تجربة اصيلة، وانما فرضت عليها الاشتراكية بشكل أو آخر، نتيجة لغزو الجيوش السوفياتية لهذه البلاد خلال المراحل الاخيرة من قتالها ضد جيوش هتلر المنسحبة في الحرب العالمية الثانية. وكان نصيب الاتحاد السوفياتي من الفتيمة، بعد حرب كان له فيها الدور الاعظم بلا جدال، هو أن يقيم حوله حزاما من الدول ذات الانظمة المؤيدة له والمندمجة فيه. وهكذا لم تتكون «الكتلة الشرقية» نتيجة كفاح مماثل لذلك الذي خاضه لينين والبلاشفيون في روسيا قبل عام ١٩١٧، وانما جاءت الاحزاب الشيوعية فيها الى الحكم بالتعيين، ان جاز هذا التعبير. ومن هنا كانت الفجوة عميقة بينها وبين قطاعات جماهيرية تزداد اتساعاً كلما أمعن النظام في ممارسة أساليب القمع . وكان وجود القوات، أو «العاميات» السوفياتية في هذه البلاد هو السند الاساسي لهذه الانظمة ، وهو الذي يقيها سخط الجماهير في أوقات الشدة.

ومن المؤكد أن هذه الجماهير كانت تختزن في داخلها قدرا هائلا من الثورة المكبوتة، بدليل أنها تحركت بمجرد أن تأكدت من أن سياسة جورباتشوف لا تؤيد التدخل العسكري من أجل دعم أى نظام للحكم لا يرضى عنه شعبه. وحين تبين بالدليل العملية، بعد الانسحاب السوفياتي من أفغانستان في أوائل العام الماضي، أن هذه السياسة حقيقة لا رجعة فيها، كانت تلك اشارة الانطلاق نحو الثورة المكبوتة. ان جميع الدلائل تدل على أن جورباتشوف كان منذ البدء واعياً بأن الوضع الذي كان سائداً في الكتلة الشرقية يستحيل أن يستمر

الى الابد، وبان تغييره بات محتماً ، وكما كان التفسير أسرع كان ذلك افضل. وجميع تصرفاته تؤكد أنه يدرك استحالة بقاء نظام يعلن أنه قام لمصلحة الانسان، وفي الوقت ذاته يقهر الانسان ويقمعه.

ومن الواضح ان سياسته تقوم على مبدأ أساسى هو، في ظروف العالم الراهنة، مقاومة كبرى ، وأعنى به أن على هذه الانظمة أن تثبت جدارتها بالبقاء بقواها الخاصة، وليس بمساندة الجيوش وقوات الامن السرية، والا فلا مفر من أن تخوض مجتمعاتها تجربة جديدة وتبدأ من الصفر. وبطبيعة الحال فقد رأينا حولنا في الاشهر الاخيرة نماذج كثيرة لمثقفين من المتعاطفين مع الاشتراكية ، يلمون الزعيم السوفياتي لانه فتح على نفسه باباً لن يستطيع إغلاقه، ولان النتيجة العملية لسياسته تؤكد على أن تؤدي الى تصفية المعسكر الاشتراكي بمرته، ولكن من يوجهون هذا النقد يفتلون مسائل أساسية: فهل كان المطلوب ترك الاوضاع الفاسدة على ما هي عليه، من أجل الحفاظ على وحدة المعسكرة. وهل يكون من حق أحد، بعد ان اتضح له مقدار السخط المتراكم لدى الشعوب نفسها، أن يعترض على ما حدث؟ هل كانت تلك اشتراكية بحق، إذا كانت الجماهير قد رفضتها الى هذا الحد؟ الحق أن اصحاب هذا الاعتراض يسيئون الى الاشتراكية، التي يزعمون الدفاع عنها، اساءة بالغة حين يستتكون عملية إطلاق المشاعر العبيسة لدى الجماهير، لانهم يفترضون ضمناً أن بقاء الاشتراكية رهين باستمرار القمع واستخدام القوة لاخماد كل صوت معارض.

وأخيراً فناننى اذا كنت قد ركزت في هذا الفصل على العوامل الداخلية التي اساءت ابلغ الاساءة الى صورة الاشتراكية في مجتمعات الكتلة الشرقية، وأكدت أن هذه العوامل تفسر الى حد بعيد عنف رد الفعل الذي لمسه العالم كله بين شعوب هذه الكتلة ضد انظمتها الحاكمة، فان هناك عاملاً أخيراً ينبغي ألا يغيب عن بالنا، ما دمنا بصدد استقصاء الاسباب المؤدية إلى هذا التحول العاد. فمن المؤكد أن هناك

أصابع متأمرة تستغل الاخطاء الفاسدة لكى تزيد النار اشتعالا، وتوجه حركة الجماهير المعقوية الى طريق تقطع فيه جميع روابطها الماضية ، إلى الابد. وكل من يتابع الاخبار بأمعان، يستطيع أن يدرك بسهولة الدور الذي تلعبه وكالات الانباء الغربية في تشوية كثير من الاحداث: فإذا هير أحد الاحزاب الشيوعية اسمه نقل الخبر بصيغة توحي بأن هذا الحزب قد حل نفسه، وإذا حُذفت مادة في الدستور تنص على احتكار هذا الحزب للسلطة، أوجت الينا وكالات الانباء بأنه قد استبعد نهائيا من الحكم. هذا فضلا عن الانتقائية الواضحة في اختيار الاشخاص الذين يقدم إليهم الميكروفون. لابداء رأيهم في الاحداث، والفجاجة المقلزة في تصوير الجماهير وهي تقبل على شراء اللحم بنهم . وتلذذ المذيع بالسخرية من الشاب الذي يمسك ثمرة «الكوي» دون أن يعرف اسمها.. الخ. هذا كله اصطياد في الماء العكر، على المستوى الاعلاى، لان الفرصة السانحة الان لا تعوض، والحديد يجب أن يطرق وهو ساخن. اما على مستوى الاحداث نفسها فلا مفر في أن يشك المرء في وجود أصابع أجنبية في تلك التحركات التي تحرص الجماهير على استعمال قطف الثمار، مع أن الاصلاح لم يكد يبدأ الا بالامس القريب ولا اظن أن الحركات الانفصالية والعرقية في الجمهوريات السوفياتية . وفى فى الآونة الراهنة أخطر ما يواجه جورياتشوف ، تخلو من هذا العنصر التأمري.

وعلى أية حال فإن اشارتى الى هذا العامل لا تنفى على الاطلاق أن التجربة، بالصورة التي اتخلتها طوال العقود الاخيرة، كانت تحمل في طياتها بذور إخفاق صارخ، وأن ذلك المزيج من الغباء والتسلط والقمع والعناد، الذى كانت تدار به الامور في بلاد الكتلة الشرقية حتى الامس القريب، كان هو المسؤول الاول عن رمود الفعل العنيفة التي قامت بها جماهير خابت آمالها في أنظمة كانت تقسم ليل نهار باغلب الايمان أنها لا تعمل الا لصالحها.

## الفصل الرابع

### هل تصمد النظرية الاشتراكية؟

عندما يجري المراء أية مقارنة بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي، في ظروف العالم الراهنة، فسوف ينتهي حتما الى تأكيد تفوق الاول على الثاني في نواح هامة وحيوية، على رأسها الاقتصادية، غير أن اجراء مثل هذه المقارنة ينطوى على قدر من الظلم: إذ أن التجربة الاشتراكية أولا، أحدث عهدا بكثير من التجربة الرأسمالية. فالاولى امتدت أربعة قرون على الأقل، منذ مطلع العصر الحديث، بينما الثانية لم تبدأ الا منذ سبعين سنة في دولة واحدة ، ومنذ أقل من خمس وأربعين سنة في بقية الدول الاشتراكية في أوروبا وآسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية. ومن المتوقع في فترة قصيرة كهذه أن يكون النظام في مرحلة لايزال يسودها طابع التجريب، وأن يقع خلال تجاربه في أخطاء فاحشة.

ومن ناحية أخرى فإن هذه الفترة القصيرة لم تكن على الإطلاق، بالنسبة إلى اصحاب هذه التجربة ، فترة هدوء يستكشفون فيها أبعاد

تجربتهم ويعملون على تطويرها بصورة ايجابية، وانما كانت فترة صراع ضد المقاومة الداخلية في البلاد الاشتراكية من جهة، وضد المقاومة الخارجية الضارية التي حاول بها النظام الرأسمالى واد التجربة الجديدة منذ لحظة ولادتها من جهة أخرى، ولما يتعلق بهذه النقطة الاخيرة، فلا بد أن نذكر أن العالم، عند مطلع العصر الحديث، كان خالصا للرأسمالية، وكان في حالة «فراغ أيديولوجي»، إن جاز أن نستخدم في وصفه تعبيراً معاصراً. فلم تكن هناك مقاومة تذكر لان الاقطاع والكنيسة كانا في زمن الاول، بل يمكن القول، على العكس من ذلك، إن موارد العالم كله قد سخرت من أجل إنجاح التجربة الرأسمالية ، وذلك عن طريق الاستعمار وغزو الاسواق واستغلال الایدى العاملة المجانية بالرق، الخ. وهكذا استطاعت الرأسمالية أن تطور نفسها بالتدريج، وتحقق جميع إمكاناتها، في جو عالمى موات وملثم الى أبعد حد. أما الاشتراكية فقد ظهرت الى الوجود في وقت كان فيه النظام الذي تسعى الي الحل محله قد بلغ أوج قوته، ومن ثم فانه قد مارس خدما منذ بدء ظهورها وحتى اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور، مقاومة ضارية، ولم يدع لها فرصة للتنفس لحظة واحدة في هدوء، ولا تنسى في هذا الصدد التأثير المدمر للحرب العالمية الثانية ، التي خرجت منها الدولة الام في النظام الرأسمالي سليمة متجددة الحيوية، بينما خرجت الدولة الام في المعسكر الاشتراكي (والوحيدة حتى ذلك الحين) مضطمة مثقنة بالجراح.

وهكذا فان أية مقارنة متصفة بين إنجازات النظامين ومستواهما وما حققاه لمجتمعاتها ينبغي أن تأخذ هذه الفوارق الجوهرية بعين الاعتبار. ومع ذلك فرأينا نعتقد اعتقاداً راسخاً بأن التجربة الاشتراكية، سواء تلك التي بدأت في نهاية الحرب العالمية الاولى أم تلك التي بدأت في أعقاب الثانية، قد ارتكبت أخطاء فادحة لم يكن لها ما يبررها حتى مع عمل حساب جميع الفوارق السابقة. وهذا الرأي لم يعد اليوم مجرد



استنتاج فكري، وإنما تؤيده وتؤكدُه أصوات الجماهير الهادرة في حواصم الدول الاشتراكية. فلا بد أن يكون هناك خلل واضح في النظام الذي يقوم بناؤه الايديولوجي على العمل لصالح القاعدة الجماهيرية العريضة ، إذا كانت هذه القاعدة الجماهيرية هي ذاتها أول من يثور عليه بضراوة.

ولكن السؤال الذي يشغل العالم بأكمله اليوم، ليس تحديد مدي الخطأ في التجربة الاشتراكية ، وإنما هو: هل لازالت للاشتراكية فرصة للبقاء في عالم اليوم والاستمرار في عالم الغد؟ هل تركت لها تلك الكراهية التي تنتشج بها وجوه المتظاهرين الساخطين أملا في أن تظل أيديولوجية رئيسية عندما يحل القرن المقبل، أم أن العقد سينفطر سواء بالحركات القومية الانفصالية داخل الاتحاد السوفياتي، أو بالتبرؤ من كل ماله صلة بالعهد السابق، في بقية الدول الاشتراكية؟ يبدو لي أن الاشتراكية ، كأيديولوجية جماهيرية، تواجه في هذه الايام أول اختبار حقيقي لها، فحتى خلال الحرب العالمية الثانية، عندما اجتاحت الجيوش النازية الجزء الأكبر من الاراضى السوفياتية الأوروبية وتوغلت مسافات غير قليلة في الجمهوريات السوفياتية الاسيوية، لم يكن الاختبار الذي تتعرض له الاشتراكية يمثل هذه القسوة. ذلك لان تعبئة الشعور الوطني الذي يرتبط بتراث أقدم بكثير من التجربة الاشتراكية، قد أدت نورا هائلا في ذلك الصعود الاسطوري الذي تمكن السوفيات بفضلله من إلحاق أفدح الهزائم بالفظة النازيين، أى أن الاشتراكية لم تكن هي نفسها التي تتعرض للمحنة والاختبار. أما في هذه الايام فإن المبدأ الاشتراكي ذاته هو الذي أصبح موضع التساؤل ، وقدرته على الاستمرار هي التي أصبحت موضع شك.

والمخرج الذي يلجأ اليه المثقفون عادة حين يصادفهم مأزق مماثل لهذا الذي تواجهه الاشتراكية في هذه الايام، هو التمييز الحاد بين النظرية والتطبيق. فقد أثبتت الاحداث أن التطبيق كان سيئا الى أبعد

حد، وأن أولئك الذين وضعوا على قمة المجتمعات الاشتراكية لكي يكونوا حراسا للمبدأ وأمناء عليه، قد أساءوا اليه بممارستهم اللانسانية أبلغ الاساءة. ولكن المثقف يظل مصرا على أن النظرية ذاتها غير مسئولة عن أخطاء التطبيق، وعلى أن ما حدث لم يكن الا انحرافا للممارسات عن المبدأ القويم، ومع ذلك فان هذه الاجابة لا تقنع الكثيرين. ذلك لان من حق المرء أن يشك في أية نظرية تعجز عن تجسيد نفسها في الواقع العلمي الى هذا الحد، أو تسفر عن نتائج مخيبة للكمال كلما طبقت.

ولابد أن تكون النظرية التي تؤدي، في كل مرة تطبق فيها عمليا، الى ظهور طفاة أو مجموعات حاكمة متحجرة تستغل نفوذها أسوأ استقلال. لابد أن تكون هذه النظرية مشوبة بعيوب أساسية، لان أحدا لا يستطيع أن يفصل بين الميدان النظري والميدان العملي التطبيقي الى حد تصويرهما بانهما ينتميان الى عالمين متباعدين لا يلتقيان.

نعم، كانت هناك عيوب أساسية في النظرية ذاتها، بالإضافة الى التجاوزات القائلة في التطبيق. ولإجدال في أن مناقشة هذه العيوب تقتضى جهدا ووقتا كبيرين. وقد قدم الكثيرون ، على مدى سنوات طويلة آراء خصبة في هذا الشأن، يستحيل أن يتسع المجال للحديث عنها في مثل هذا الميز المحدود. وربما كان الامر المجدي حقا، في هذا السياق، هو أن نورد أهم ما كشفت عنه الاحداث الاخيرة من عيوب في النظرية ذاتها، لان الوعي بهذه العيوب سيكون هو المدخل الى عملية التصحيح الكبرى التي ستحاول الاشتراكية القيام بها في الاعوام القليلة القادمة ، اذا لم تطرا عوامل تبعد فرصتها في القيام بأي تصحيح.

أول هذه العيوب تجاهل انسانية الانسان. صحيح أن مبدأ الاشتراكية يقوم أصلا على تحرير الانسان من عبودية الاستغلال الذي يمارسه رأس المال، ومن تعامل الرأسمالية معه كما لو كان «شيئا» يباع ويشترى. غير أن الفكر الاشتراكي قد طور على مر السنين مفهوما

للإنسان يؤكد الجانب الاجتماعي فيه أكثر مما يرمى الجانب الفردي. فالإنسان الذي تجده الأعمال الأدبية والفنية والفكرية، التي تسودها الروح الاشتراكية، سواء أكانت اشتراكية ماركس أم غيره، هو الإنسان الذي تندمج أهدافه كلية مع أهداف المجتمع، وهو الذي ينسب نفسه كفرد له عالمه الخاص، لكي يوجد ذاته مع الكل الأكبر الذي ينتمي إليه. ومن السهل جدا، عند التطبيق، أن يتحول هذا المبدأ الذي كان هدفه في الأصل نبيلًا، إلى مبرر لتهرب الإنسان وظلمه، فما أسهل أن يتهم أي حاكم مستبد مثل ستالين من يعارضه بأنه يتآمر ضد مصلحة المجتمع، فيصدر حكما بإعدامه وهو مرتاح الضمير، لأن «الكل الأكبر» هو الغاية القصوى، وفي سبيله يهون كل شيء. وما أسهل أن توضع مصالح «الخطأ» الشاملة فوق مصالح فئات كثيرة قد تجد من المستحيل، أو من المرفق، تنفيذها تبعًا لرؤية المخططين الذين لا يرون إلا الصورة «الكلية» ويتجاهلون كل ما في داخلها من جزئيات إنسانية. وما أسهل أن تتم التضحية بكثير من ضرورات الحياة في هذا البلد أو ذاك من أجل مصلحة «المعسكر الاشتراكي» ككل. وهكذا فإن المبدأ الذي يوضع في الأصل لتحقيق مصالح أوسع قطاعات من الجماهير، يتحول بالتدريج إلى مبرر فكري لتهرب الجماهير وتجاهل مطالبها المشروعة.

ولقد حاول الكثيرون، طوال تاريخ الحركة الاشتراكية، أن يؤكدوا أهمية هذا الجانب الإنساني، ويقتنعوا الأحزاب الاشتراكية، سواء أكانت في الحكم أم خارجه، بأن إعطاء جرعة من النزعة الإنسانية إلى مذهب سوف ينشطه ويزيد من عافيته. خير أن هذه المحاولات كانت تصطدم دائما بموقف المدافعين عن «الصرامة» و«القوانين الموضوعية» وكانت تنتهم بأنها اشتراكية «رخوة» أو «غير علمية» لأن الاشتراكية الحقيقية في نظر هؤلاء المتشدين يجب أن تضع في اعتبارها العوامل العامة التي تتحكم في مسار التاريخ، وهذا وحده هو ما يجعلها «اشتراكية علمية» بالمعنى الصحيح، أما تلك الرفافة الإنسانية فإنها تحول

السياسة الى شئ أشبه بالشعر أو الفن. ولعل في هذا ما يفسر، الى حد بعيد، تلك الازمات المتلاحقة التي كانت تتورد بين سلطة الحزب وبين الفنانين والادباء ، منذ بداية الثورة الشيوعية في ١٩١٧ حتى اليوم ، ولعل فيه أيضا ما يفسر تلك الظاهرة الفريدة في تاريخ الانسانية، وهي قيام الجماهير الثائرة على الاستبداد الصارم للحزب في تشيكوسلوفاكيا، خلال الاحداث الاخيرة ، باختيار «كاتب مسرحي»

رئيسا للجمهورية (وهي فيما اتصور المرة الاولى التي يحكم فيها أحد رجال المسرح بلدا بأكمله، مما يطرح تساؤلات طريفة، ينتظر المرء الاجابة عنها بشوق وتلف، حول الطريقة التي سيتحول بها تفكيره هافيل» من استخدام خياله في تحريك شخوص المسرح وأحداثه بحرية كاملة ، الى استخدام عقله في تحريك أوضاع الاقتصاد والدبلوماسية والدفاع في عالم الواقع الذي لايلين!!)- هذا فضلا عن الدور الكبير الذي أسهم به الادباء والفنانون والكتاب في أحداث البلاد الشرقية الاخرى ، والاتحاد السوفياتي نفسه، ووصول عدد منهم الى مراكز قيادته في المجر ورومانيا وغيرهما بعد الثورات الجماهيرية الاخيرة.

ان لتجاه الشعوب الى الكتاب والفنانين في مثل هذه الظروف يمثل رد فعل واضحا على تجاهل الانسان النابض بالحياة في الانظمة السابقة سعيا لاشبهه فيه من اجل اصفاء اللمسة الانسانية التي حرمت منها تلك الشعوب طويلا، باسم «الموضوعية العلمية»، على اسلوب ادارة المجتمع في تلك البلاد، واذا كانت تلك التحولات تبدو في ظاهرها ثورة على التطبيق السيئ لمبدأ نبييل ، فانها في حقيقتها احتجاج على عناصر اساسية في المبدأ نفسه ، تفتح المجال واسعا أمام كل من يريد ساحة التطبيق.

لقد كانت «الاشتراكية الانسانية» توصف دائما بأنها «حرفية». بل لقد بذلت محاولات لالغاء ظل من النسيان على كتابات هامة لكارل ماركس، الفها في وقت مبكر، ل مجرد انها تؤكد هذا الجانب الانساني

في الاشتراكية ، مع ان هؤلاء الذين تجاهلوا لم يكونوا يتركون سطورا واحدا لماركس دون أن يحلوه ويستشهدوا به. ووصل الامر ببعضهم الى حد النظر الى هذه الكتابات كما لو كانت تمثل المرحلة «الجاهلية» في فكر ماركس، قبل ان تهبط عليه «رسالة» الاشتراكية العلمية. وكم من اشتراكيين مخلصين طردتهم الاحزاب الشيوعية لمجرد انهم سعوا الى تطعيم النظرية بهذا الجانب الانساني. فقد كانت تدور داخل تلك الاحزاب عملية «تكفير» مماثلة لما نجده لدى اشد الجماعات الاسلامية المعاصرة تطرفا، وكان الدفاع عن شكل من أشكال الحريات الليبرالية مكافيا لطرد صاحبه من الحزب، وهو ما يعنى الخروج من الجنة، والحكم عليه بان يظل مشردا مذبذبا.

وقد ينتهز المعسكر الاخر الفرصة كيما يجتذب هذا المطرود او يستغل انتقاداته في دمايته ضد خصومه، فيتمزق صاحبنا من الداخل ويظل عاجزا عن الانتماء، وتغمره العسرة الابدية وهو يرى التيار العام للمعسكر الذي يؤمن به يسير في طريق غير طريقه.

وانى لعلي يقين من أن جورباتشوف لو كان قد ظهر بالفكر هذه في العهد الستاليني، او كان قد جهر بها صراحة في «عصر الجمود» أيام برجنيف، لاتهم بأنه اكبر تحريفى، ولكان الان مجرد ذكرى باهتة لسياسى معارض مدفون فى سيبيريا، او محكوم عليه بشغل وظيفة كاتب صغير في مزرعة جماعية نائية. ولكن من حسن حظ جورباتشوف- وحظ العالم- إن افكاره لم تظهر بكل ابعادها الانسانية والديمقراطية الا بعد أن أصبح مستقرا في الحكم ، قادرا على دعم هذه الافكار بكل الثقل الذي يضفيه الوجود في السلطة. ولعل فى هذا تطبيقا آخر لتلك القاعدة التى يترسخ عالمنا العربى يأمثلة صارخة لها، واعنى بها أن الفرق بين الحاكم الوطنى حبيب الشعب وولى نعمته ، وبين العميل الخائن عدو الشعب والمحرص على الفتنة ، كثيرا ما يكون هو الفرق بين النجاح في الاستيلاء على السلطة والافخاق فيها

وإذا كنا قد توسعنا في الحديث عن هذا العيب الأول في النظرية الاشتراكية ، فذلك لأنه هو الأصل الحقيقي لمعظم الأخطاء الأخرى التي وقعت فيها تلك النظرية. فمن السهل ، مثلا ، أن ينتقد المرء منهج التفكير لدى معظم الماركسيين الكبار بأنه منهج «سلطوي» أكثر مما ينبغي. وعني بالسلطوية أن كتابات ماركس وإنجلز، وعن بعدهما لينين، ينظر إليها كما لو كانت هي المرجع الأول والأخير في كل مشكلة تواجه الفرد أو المجتمع. ولابد لكي يثبت الكاتب أنه مخلص للايديولوجية، من أن تمتلئ كتابته بالهوامش التي تشير إلى اقتباسات من ماركس أو لينين. وكثيرا ما يشعر المرء بأن الاقتباس مصطنع، لايقصد به إلا اثبات «ولاء» الكاتب، لأن الموضوع يتناول مشكلة مستجدة يستحيل أن يعمل مفكر في القرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين، مهما علت مكانته، حسابا كاملا لها. (واست في حاجة إلى تنبيه القارئ، في هذه الحالة أيضا ، إلى التشابه الواضح مع المنهج الفكري لكثير من منظري الحركة الإسلامية المعاصرة).

وليس هذا النقد مجرد خطأ منهجي له تأثيره على الميدان الثقافي فحسب، بل أن تأثيره يمتد إلى مجالات واسعة، إذ أن اتباع هذا الأسلوب يشجع التفاق الفكري ويجعل المتلقين هم الاقدر على التسلق إلى قمة المجتمع. وهو يحول دون ظهور التجديد والابداع في ابتكار اساليب تتم بها مواجهة المشكلات في عالم سريع التقلب، ومن ثم فانه مسئول إلى حد بعيد عن كل ما تتصف به الفترات السابقة على جورباتشوف من جمود.

وأخيرا، فإن من أوضح العيوب النظرية في الفكر الاشتراكي السائد حتى عهد قريب، إفراطه في التنظير. فقد كان إخضاع الواقع المتغير قوالب المستمدة من النظرية الماركسية سمة أساسية لهذا الفكر . وكان المبرر الذي يقدم لذلك هو أن من المستحيل على أية حركة سياسية أن تتجج في ممارستها ما لم تسترشد «ببوصلة» فكرية تعلق بها على

مستوى الارتجالية والتخبط. والمبدأ في ذاته سليم، غير أن الإفراط في استخدامه كثيرا ما يؤدي الى نتائج عكسية. ففي حالات كثيرة لم تكن الأحزاب الماركسية تخطو خطوة واحدة الا بعد أن تقوم بتحليلات نظرية شاملة للمواقف في ضوء النظرية الأم. وأعجب ما في الأمر أن هذه التحليلات كثيرا ما كانت تتناقض فيما بينها، فيصل حزب الى نتيجة معينة، ويصل حزب آخر، أو الحزب الأول نفسه في مرحلة لاحقة، الى نتيجة مضادة، إزاء الظاهرة الواحدة ، مستخدمين نفس المنهج، وكثيرا ما كان يتكرر هذا نفس الخطأ الذي لاحظته فلاسفة العصر الحديث على علماء اللاهوت في العصور الوسطى حين كانوا يجعلون من القوالب اللفظية حاجزا كثيفا يحجب عنهم عالم الواقع بكل ما فيه من ثراء وتغيير. بل أن بعض الشباب المنتهين الى حركات يسارية كانوا يقضون الليالي في التراشق برطانات لفظية وتقليب مجموعة من الكلمات الضخمة المحفوظة ذات اليمين وذات اليسار، ويخرجون من السهرة قريبي العين ، متوهمين أنهم تمكنوا بذلك من تحليل الواقع المعقد وحل مشاكله.

هذا الاتجاه الى الإفراط في إخضاع الواقع للنظرية، بدلا من إخضاع النظرية للواقع ، كما ينبغي أن يفعل أى تيار سياسى يريد حقا أن يكون له دور فعال- يبدو لى ناجما عن الأصول الهيكلية للفلسفة الماركسية. وأرجو الا ينزعج القارئ من هذه الإشارة التى قد لا تكون واضحة لدى الكثيرين، ولكنى لن أطيل في هذا الموضوع الفلسفى المعقد، ويكفى أن أشير إشارة عاجلة الى أن فكر ماركس، وهو أكبر بناء متكامل للفلسفة المادية، قد انبثق عن فكر هيجل الذى شيد أعظم بناء نظري متكامل للفلسفة المثالية، يخضع الكون والتاريخ والفلسفة والفن لآطار فكرى واحد. وكان لا بد أن يؤثر هذا الأصل فى تحديد المنهج الفكرى الذى يسير عليه ماركس والماركسيون، وأن يكون منهج الرجوع الدائم الى القالب النظري الجاهز داء مستحكما فى

الفكر الاشتراكي اللاحق، يمارس تأثيره ويترك بصماته يوضح على الممارسات العملية لمعظم التجارب الاشتراكية في الحكم.

ومن الطريف أن يقارن المرء بين هذا المنهج الفكري الذي سارت عليه التجارب الاشتراكية، وبين الأسلوب الذي تتخذ به القرارات الهامة في قلعة النظام الرأسمالي، أعني في أميركا. ففي أميركا تسود فلسفة مضادة ، قوامها أن «ما ينجح عملياً هو الصحيح» (وهو المبدأ الأساسي في الفلسفة البرجماتية ، التي هي من حيث الاصل فلسفة أميركية خالصة). ويرتقب على ذلك أن العقلية الأميركية لا تصرف في التحليل النظري، ولا تعباً كثيراً بتفسير الأحداث من خلال قوالب مسبقة ، وإنما تعالج كل حالة على حدة، وتتصرف فيها تبعاً لمقتضياتها الخاصة، وتشكل نفسها تبعاً لكل موقف. وعلى حين أن الفكر الماركسي يسرف كثيراً في الحديث عن قوانين التاريخ، وعن حتمية التحولات الكبرى فيه، ويصل في ذلك أحيانا إلى حد تغليب النظرية على الواقع المعقد المتجدد ، فإن طريقة التفكير الأميركية تتحلّى مع الواقع كيفما تشكل، وتكاد في التزامها بهذا الواقع أن تُلغى النظرية من الأساس.

ويؤدي الاسراف في الفكر النظري إلى الافراط في التنبؤ، فيبدو التاريخ وكأنه مراحل حتمية لا مفر من حدوثها. وعلى ذلك فكما انتقل التاريخ من مرحلة العبودية إلى مرحلة الاقطاع، ومن الاقطاع إلى الرأسمالية ، فلا مفر من أن تكون الخطوة التالية هي الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية فالشيوعية. ويصور هذا الانتقال كما لو كان قدراً محتوماً لا فكاك منه، ويقنع الماركسي المتحمس نفسه بأن هناك قوة تملو على الافراد والائظمة والحكومات، اسمها «حتمية التاريخ»، تعمل على دفع الأحداث في الاتجاه الذي تنتبأ به النظرية. وأية مقاومة لحتمية التاريخ هذه لن تكون لها من نتيجة سوى أن ترجئ المحتوم بعض الوقت، ولكن ما سيحدث لابد أن يحدث وعلى هذا الأساس ساد التفاؤل المطلق بين الماركسيين الاوائل في أعقاب ثورة ١٩١٧،



وكان منهم كثيرون ينتظرون اللحظة التي تسقط فيها الرأسمالية كالشجرة المعطوبة. وورغم تقلب الاحداث وتعقد الواقع وتجاوز إطار النظرية مرارا، ظل التفاضل هو الغفمة الغالية، حتى رأينا خروفتشوف يهتف في وجه الرأسماليين الاميركيين في عام ١٩٥٦: «سندفكم» ويتنبأ من خلال تحليلات «علمية» مبنية على قوالب النظرية أكثر مما هي مرتكزة على معطيات الواقع، أن الاقتصاد في البلاد الاشتراكية سوف يلحق بالاقتصاد الرأسمالي في عام ١٩٨٠، ثم يتجاوزه بعد ذلك بمراحل، ويسجل هذا التنبؤ الخطير في وثيقة عظيمة الأهمية، هي أعمال المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي.

كل هذا التفاضل كان مبنيا على تلك السمة التي أشرت اليها أكثر من مرة من قبل ، وهي تحليل التاريخ من طرف واحد ، هو الطرف الذي ينتمي اليه المحلل نفسه ، وعدم حساب ردود الفعل المتغيرة والمتجددة التي يقوم بها الطرف الآخر من أجل إفساد هذا التنبؤ وإبطاله . والاساس الذي يركز عليه هذا الخطأ المنهجي هو الاعتقاد بأن المرء يمتلك الحقيقة المطلقة ، وكل ما عداها تعريف أو انحراف أو بطلان صريح (هل هناك حاجة الى اشارة أخرى الى التشابه بين هذا الاطار الفكري وبين نظيره في الاصولية الاسلامية المعاصرة؟) ومن هنا تأتي الثقة الزائدة بالنفس، لانه لا شيء يبعث على هذه الثقة بقدر اعتقاد المرء بأن التاريخ يسير لصالحه، أو بأنه يمثل في سلوكه ارادة التاريخ . ومادام يسير في الاتجاه الصحيح لحركة التاريخ، فماذا يشير لو حدثت أخطاء هنا أو تجاوزات هناك ؟ ولماذا يستعج الحاكم الى أصوات المعارضين أو يعترضه بها ، مادام يعلم أن هذه الأصوات تعارض حتمية التاريخ ، التي يجسدها هو نفسه.

ولكن المفارقة الساخرة تظهر في أن أولئك الذين كانوا دائما واثقين من امتلاكهم لناصية التطور، ومعرفتهم لاتجاه المستقبل، وتجسيدهم لحتمية التاريخ، هم الذين غشلت تنبؤاتهم، ولم تتحقق «حتمياتهم» على

حين أن أصحاب الابدولوجية المضادة، الذين يفكرون يوما بيوم، وحادثاً بحدوث، هم الذين تحكموا بصورة أكبر في مجرى التاريخ المعاصر. وهكذا كان الدرس واضحاً: من يظن أن التاريخ حصان يمكن امتطائه، سينتهي به الأمر إلى أن يمتطيه التاريخ.. تعقد الحياة المعاصرة لا يمكن استيعابه إلا بالمزيد من المرونة، والاقبال من الحديث عن «الاحتمالات»، لأن التاريخ في نهاية الأمر ينقاد لمن يشكله، لا لمن يتشكل به.

أن سلسلة المناسبات التي حدثت أمام أعيننا في أوروبا الشرقية إنما هي نموذج واضح كل الوضوح للاخطاء التي تتفاعل فيها النظرية مع التطبيق. فقد كانت في النظرية ذاتها ثغرات، حاولنا أن نكشف هذا عن بعض من أهمها، هي التي فتحت الباب للاخطاء الفادحة في التطبيق. ولم يعد هناك مجال للقول إن النظرية تظل محتفظة بعصمتها وتسميتها، وأن من يتبنونها هم وحدهم المذنبون. فلا مفر من العودة إلى الجذور، وإستئصال ما جف منها وما ذبل.

وفي تصوري أن جورباتشوف، الذي ينتمي إلى جيل لم يشارك في الأحداث الرائدة الأولى، ولم يفرق في جذليات الثورة العالمية أو الثورة المحلية، هو أول زعيم ينظر إلى الاشتراكية بوصفها هدفاً إنسانياً رحباً، يمكن أن يتخذ أشكالاً متباينة، ولا يتعين حصره في قالب واحد. ومن المؤكد أنه أدرك أن العناد المفرط والثقة الزائدة التي كان يتصرف بها أولئك الذين كانوا يعتقدون أن «حتمية التاريخ» تعمل لصالحهم، هو الذي يمكن أن يقضى على التجربة من أساسها، فجميع تصرفاته تدل على أنه يدعو إلى إدخال عنصر المرونة في النظرية نفسها. إلى جانب العنصر الإنساني في التطبيق.

## الفصل الخامس

### هل ثبتت رؤية هلال الرأسمالية؟

في كل مجتمعات العالم تحدث تغيرات، وكثير من هذه التغيرات يسفر عن تحولات جذرية في بنية المجتمع. ومع ذلك فإن التغيرات التي حدثت خلال العام الماضي في بلدان الكتلة الشرقية هي التي اثارت اهتمام العالم بوصفها ايدانا بمرحلة جديدة في تاريخ البشرية، وهي التي حفزت الكتاب والمعلقين الى تجنيد اقلامهم وحشد اذهانهم في محاولة للاعتداء الي معالم في ذلك الطريق الذي اصبحت العواصف تغلفه بالضباب من كل جانب. وربما كان أحد اسباب هذا الاهتمام، ذلك التعاسك الشديد والصلاية الفائقة التي كانت تبدو عليها اوضاع الكتلة الشرقية ولست اعنى بذلك أن الانظمة الحاكمة في تلك البلاد كانت تستند الي جبهة داخلية قوية، وانما الذي اعنيه ان هذه الانظمة رتبت اوضاعها بحيث تظل متمسكة بالسلطة الى اجل غير محدد، واستبعدت منذ البدء اليات التفسير السلمي للجهاز الحاكم، ومن اجل هذا السبب بالذات، كان من الطبيعي ان تبدو اية محاولة لتغيير السلطة، كما حدث في الامة الاخيرة ، انهياراً للنظام بأكمله.

لقد تعرض العالم الغربي في العقود الاخيرة من تاريخه لتحولات كثيرة، منها على سبيل المثال وقوف دول اساسية فيه، كفرنسا

واسبانيا، موثقا سلبيا من المشاركة العسكرية في حلفه العسكري  
الاكبر، حلف الناتو «شمال الاطلسي»، بعد ان حكمتها في السنوات  
الاخيرة احزاب اشتراكية ديمقراطية . بل ان العالم الغربي شهد حالات  
تحول من النظام الرأسمالي الى نظام ماركسي سريع ، كما حدث في  
شيلي عند فوز الليندي في اوائل السبعينات. وفي الولايات المتحدة  
نفسها ، شهد النظام الرأسمالي إنهيارا خطيرا خلال الازمة  
الاقتصادية الكبرى عام ١٩٢٩، وتوثبت على هذه الازمة كوارث  
اقتصادية هائلة دامت سنوات عديدة ولحقت اضرارا جميع البلاد  
المرتبطة بالنظام الرأسمالي. وكانت أوسع التحليلات انتشارا تؤكد ان  
هذه الازمة ليست عارضة على الاطلاق، وانما هي تعبير عن خلل متاصل  
في بنية النظام الرأسمالي ذاته.

ومن السهل ان يدرك القارئ ان شيخ هذه الازمة مازال مشيما على  
العالم الرأسمالي حتي يومنا هذا.

بل أن ظهور الانظمة الفاشية والنازية في ايطاليا والمانيا واليابان  
واسبانيا في فترة ما بين الحربين العالميتين ، وكثير من نظائرها  
وامتداداتها في دول العالم الثالث منذ الحرب العالمية الثانية، هو في  
رأى الكثيرين تعبير عن أزمة هيكلية في النظام الرأسمالي، ومحاوله  
غير موفقة للخروج من إسار الازمة ، خلاصة القول ان مايرر به العالم  
الاشتراكي من مشكلات خطيرة ليس هو الحالة الوحيدة لظهور أزمة  
عميقة في هيكل نظام عالمي رئيسي. ومع ذلك فان الاذمان قفزت  
مباشرة، في هذه الحالة الاخيرة بالذات، الى استنتاج سريع هو ان  
التجربة الاشتراكية كلها قد أفلست، وانها لم تكن منذ البدء الا حالة  
عارضة او «دعكة» اسابت قطاعا من البشر وسرعان ما نزل ليعود  
العالم كله رأسماليا كما كان قبل ١٩١٧ . فلماذا يصدر المحللون  
احكاما كهذه الان ، بينما لم يقل احد (باستثناء بعض الماركسيين) ان  
بناء النظام الرأسمالي ذاته كان لابد ان ينهار بعد الكساد العظيم في  
١٩٢٩. أو أن الرأسمالية لابد ان تنبذ لانها افترت، بشكل مباشر أو  
غير مباشر ، انظمة دكتاتورية كاتظمة هتلر وموسوليني وفرانكو  
وسالازار؟

أغلب الظن أن الرد على هذا التساؤل يكمن في تلك المرونة الهائلة  
التي تراجه بها الرأسمالية أزماتها، وفي قدرتها الفائقة على إعادة  
التكيف بعد كل مازق خطير تقع فيه، على حين أن الانظمة الاشتراكية

تجمدت وتحجرت الى حد يذت معه وكأنها إما أن تحافظ على أوضاعها دون تغيير، وإما أن تنهار انهيارا تاما.

وفى وسعنا أن نوضح الفارق بين الاثنين بالمقارنة بين كرة الطاولة (البلنج بونج) والبيضة. فالأولى تقلق وتترد سليمة اذا اسقطت او ضربت، والثانية تتكسر وتسيل بمجرد أن تصطدم قشرتها بأى جسم صلب. وبالمثل فكما ان الرأسمالية تستطيع ان تتخذ ألف شكل وشكل، وتظل مع ذلك رأسمالية، فان الاشتراكية كما طبقت في أوروبا الشرقية لم تكن تستطيع التخلّى عن طابعها الثابت والمتصلب الا اذا عرضت بقاها واستمرارها للخطر.

وفى تصوّرنا أن هذه السمة بالذات كانت جزءاً أساسيا من خطة الإصلاح التي وضعها جورباتشوف وحرص على تطبيقها في دول أوروبا الشرقية ، ومهد لها بقبول هذه التحولات العنيفة. فلماذا لاتصبح الاشتراكية بدورها نظاما مرنا، يقبل التطور ويتكيف وفقا لمتطلبات العصر؟ ولماذا تحمل الفرنسيون والالمان الغربيون والاميريكيون مظامرات ١٩٦٨ العارمة، التي شارك فيها الملايين من الطلاب والمهنيين والعمال، وظل نظامهم في أساسياته سليما ، بينما تضطر الجيوش السوفياتية الى التدخل كلما حدث اضطراب واسع الأبعاد في أى بلد اشتراكي؟ لماذا لا تتخذ هذه البلاد لنفسها آليات تسمح لها بامتصاص سخط الجماهير على انظمتها ، اذا ارتكبت أخطاء فادحة ، وتتيح لها تصحيح مسارها واكتساب ثقة هذه الجماهير من جديد؟

لماذا يسود دائما هذا البديل الانتحاري: اما بقاء كل شئ على حاله بقوة السلاح، واما انهيار كل شئ؟ من المؤكد أن اعلان جورباتشوف الصريح أن جيوشه لن تتدخل لمساندة أى نظام يثور عليه شعبه، وإشاراته الواضحة الى أنه لن يؤيد القيادات الستالينية المتحجرة، بل ومشاركته الايجابية، على ما يقال- فى إزاحة بعض هذه القيادات، مع ادراكه للفتائج الخطيرة التي يمكن أن تترب على ذلك . وفى المدى القريب على الأقل ، بالنسبة الى وحدة المعسكر الاشتراكي وتماسكه- كل هذا دليل على أن سياسته تسعى الى أن تضعف الى التجزئة الاشتراكية عنصرا هاما تتفق عليها فيه الرأسمالية تقوفا ملحوظا :

وهو عنصر المرونة في اختيار الشعب للجهاز الحاكم، وتبنى آليات التغيير السلمي للحكومات، دون حاجة كسر القشرة المتصلبة، وبطبيعة الحال فان الكثيرين قد هللوا وصفقوا لهذا التحول الذى بدا في ظاهره

تراجعا خطيرا، وكان لسان حالهم يقول: ألم نقل لكم ان الاشتراكية بدعة زائفة ؟ هاهي ذي تقتبس اهم مبادئ الحكم والسياسة من العالم الرأسمالي، وتتراجع عن طابعها «الشمولي». الذي كان اهم سماتها المميزة. فماذا يتبقى بعد ذلك من الاشتراكية؟ على أننا سنرجئ مناقشة الشطر الاخير من هذا السؤال ، واعني به: هل يتبقى من الاشتراكية شئ اذا اتبعت آليات التغيير الديمقراطي المعروفة في الرأسمالية- سنرجئ هذه المناقشة حتى الفصل التالي . اما الان ، فلزام علينا ان نناقش الشطر الاول، واعني به دلالة اقتباس الاشتراكية لمبادئ هامة تنتمي الى صميم التجربة الرأسمالية.

ان الحكم على موضوع الاقتباس هذا، يتبقى ان ينظر اليه في سياق اوسع ، تتامل فيه مليا تلك العناصر العديدة التي سبق للرأسمالية ان اقتبستها من النظام الاشتراكي. ذلك لان النظام الرأسمالي قد عدل هيكله مرارا ، وفي كل مرة كان يدمج في داخله مبدأ من المبادئ التي تنادي بها الاشتراكية، ولكن بعد تعديله بحيث يلائم اطاره العام . ولاشك أننا قرأنا كثيرا عن تلك الفوارق الهائلة بين الرأسمالية المعاصرة، وبين رأسمالية القرن التاسع عشر التي تنبأ كارل ماركس بانهيائها، بوصفها مرحلة في التاريخ ادت مهمتها واصبح من الضروري تجاوزها الى مرحلة ارقى ، وفي معظم الاحيان يشار الى هذه الفوارق بوصفها دليلا على اخفاق تنبؤات ماركس عن انهيار الرأسمالية العتمة من جهة، وعلى قابلية الرأسمالية للتكيف والتطور من جهة أخرى. ولكن السؤال الحاسم في هذا الصدد هو: هل جاءت هذه التطورات الهامة من قلب الرأسمالية نفسها، اعني هل من طبيعة هذا النظام ان يطور نفسه بحيث يعطى العمال مزيدا من الحقوق، ويضمن لهم نصيبا. يقل او يزيد- من التأمينات الاجتماعية والصحية ، ويتبع في سياسته الاقتصادية والاجتماعية قدرا- يقل او يزداد ايضا- من التخطيط، الخ؟ الواقع ان التعديلات والتصحيحات التي ادخلها النظام الرأسمالي على مساره، كانت في جوهرها رتود فعل على وجود نظام مضاد..

وليس معنى ذلك ان الخوف من ذلك النظام المضاد هو وحده الذي دفع الرأسمالية الى تطوير نفسها، بل ان هذا التطور قد حدث من أجل قطع الطريق على اية دعوة الى شكل من أشكال الاشتراكية بين عمال البلاد الرأسمالية، ومن أجل تقديم نموذج يبدو في نواح كثيرة، أكثر

ازدهارا من النظام البديل، وإذا كنا قد توسعنا من قبل في الحديث عن سباق التسليح بوصفه وسيلة بارعة - وقائلة - ابتكرها النظام الرأسمالي من أجل إيقاف نمو الاشتراكية ، وقلنا ان التنافس في ظل هذا السباق كان امرا استحال على ماركس ان يعمل له حسابا في نظريته ، فان ما نتحدث عنه الآن ، اعنى قدرة الرأسمالية على تصحيح مسارها بتبني بعض مبادئ النظام الاشتراكي من أجل اسقاط دعوى الاشتراكية بانها هي التي تمثل مصالح العمال في كل مكان ، كانت بدورها تطورا لم تعمل له النظرية الماركسية حسابا. فقد افترضت هذه النظرية ان الحركة الاشتراكية ستنتشط وتتمو وتجذب مزيدا من عمال البلاد الرأسمالية يوما بعد يوم، بينما تظل الرأسمالية علي ما هي عليه ، وتسعي الي امتصاص اكبر قدر من « فائض القيمة » من العمال ، لان الاقوى لا تمتلك الا ان تكون سامة. غير ان النظام الرأسمالي استطاع ان يواجه هذا الهجوم ببراعة ، وأن يطور نفسه في مواجهة انواع عديدة من الازمات ، وتخلي عن عناصر كثيرة من تلك الرأسمالية التي كتب عنها ماركس، ولكنه كسب في مقابل ذلك قدرة كبيرة على الصمود والبقاء.

والخلاصة إذن ان ما استعارته الرأسمالية من الاشتراكية ربما كان يفوق بكثير، في تنوعه واتساق نطاقه، كل ما يبدو أن الاشتراكية تستعيره الآن من الرأسمالية.

ومع ذلك فان أجهزة الاعلام الغربية لا تصور ما يحدث الآن على انه مرحلة تصحيح فيها الاشتراكية مسارها، تماثل عشرات المراحل التي سبق للرأسمالية ان صححت فيها مسارها باستعارة عناصر من الماركسية ذاتها، وانما تصوره على انه ائنيار وسقوط نهائي للاشتراكية. فإذا كانت الايديولوجية تسقط بمجرد أن تستعير عناصر أساسية من ايديولوجية أخرى، فلماذا إذن لم تسقط الرأسمالية العالية التي تحمل سمات لن يستطيع أنم سميث ، لو بحث حيا من قبره، أن يتعرف على رأسماليته التقليدية في سمة واحدة منها؟

إن الرأسمالية لو كانت قد تركت لنفسها، دون وجود ايديولوجية منافسة تملك تأثيرا دوليا كبيرا، وتمارس تأثيرها ايضا على الطبقات العاملة والثقافة داخل الدول الرأسمالية ذاتها - لما سار تطورها في اتجاه تحقيق مصالح للعمال ، كما يحدث بالفعل في البلاد الصناعية المتقدمة. وأبسط دليل على ذلك ما تمارسه الرأسمالية من استغلال بشع

للعمال والفلاحين الفقراء في بلاد العالم الثالث . فحين تفتتح إحدى الشركات متعددة الجنسية مصنعا في بلد فقير، تكون شروط العمل في هذا المصنع، وليس الأجور فحسب، أسوأ بما لا يقاس من نظائرها في مصانع البلاد المتقدمة. وحسبنا أن نشير هنا إلى الفرق بين مصانع شركة «يونيون كاربايد» في أميركا نفسها والمصنع الذي كان تابعا للشركة نفسها في الهند، حيث وقعت حادثة تسرب الغاز السام المشهورة في مدينة «بويل» منذ سنوات قليلة، وتساقط المئات من العمال وأسره كالأذاب، ووقف أصحاب الشركة يدافعون عن أنفسهم بوقاحة أمام رأي عام عالمي ساخط، ويستاجرون أبرع المحامين حتى لا يدفعوا إلا أقل القليل من التعويضات لأهل البلدة المنكوبة. وكل مثل هذا عن أية مقارنة يجريها المرء بين أوضاع العامل الزراعي الأبيض في أية مزرعة من مزارع الجنوب الأميركي، وأوضاع العمال التعمساء الذين تقوم «شركة الفواكه المتحدة» بتشغيلهم بأبخس الأجور، وفي أسوأ الأوضاع، لكي تكسب هي الملايين من مزارعها في جواتيمالا وهندوراس وغيرها من جمهوريات الموز، التعيسة في أميركا الوسطى.

ولو أمعنا النظر في هذه المقارنة، لتبين لنا أن الفارق الوحيد بين الحائتين هو أن العمال لديهم في الحالة الأولى من الوحي ما يسمح لهم بالكفاح الفعال من أجل حقوقهم، فلا يجد النظام مقرا من إرضائهم. أما في الحالة الثانية فإن تعاسة العمال ومقرهم وأميتهم، وتعرضهم الدائم لبطش الأنظمة الدكتاتورية التي تقرضها الشركات الأميركية العاملة في أراضيهم، كل ذلك يجعل صوتهم غير مسموع، وما دام خطرهم ضئيلا فلماذا تهرق الرأسمالية نفسها بتحسين أوضاعهم؟

على أن الرأسمالية تعيش منذ أواخر عام ١٩٨٩ فترة ترتفع فيها معنويات انتصارها إلى السماء، ويتفزل فيها الكثيرون، وينادي الكتاب، الذين لم يكونوا يجرؤون حتى عهد قريب على الدفاع صراحة عنها، بأنها هي النظام الطبيعي للإنسان، أو هي النظام السوي، وكل نظام آخر هو انحراف لايد، مهما طال الزمن أو قصر، أن تشفى منه المجتمعات التي يشاء سوء حظها أن تقع فريسة له. ولا مفر للمرء حين يجد أن هذا الغزل المكشوف قد تجاوز حدوده، من أن يعود إلى تذكير الناس بأبسط البديهيات التي يبدو أن انفجارات أوروبا الشرقية قد افقدتهم الوعي بها.

إن المهللين للرأسمالية، بوصفها النظام الطبيعي الذي منه بدأ



عصرنا الحديث واليه يعود، يصنفون ابتهاجا لسقوط الامبراطورية الشيوعية. وقد اوضحنا في الفصل السابق ان كثيرا من العناصر التي التهجتها المجموعة الشيوعية كان يستحق السقوط بالفعل، وان انهيار ممارستها القومية امر لا ينبئ ان يأسف له اي انسان مستنير. ومع ذلك فافقتا حين نتحدث في هذا الصدد عن «امبراطورية شيوعية» نستخدم الكلمة بمعنى مجازي، على حين ان الرأسمالية كانت لها امبراطوريات بالمعنى الحقيقي، والدموي، وهي امبراطوريات لم تكن باخضاع شعوب العالم الثالث لهيمنتها، وانما امتصت دماها طوال ارون عديدة، وقتلت من اينائها عشرات الملايين، وخاصة في المناطق الجبلية والشمالية كإفريقيا السوداء، وأرقت دماءها وزرعت التخلف والاعتماد على الغير في مجتمعات كانت لها، قبل العهد الاستعماري، حياة كريمة مكتفية بذاتها الى حد بعيد.

هذه بديهيات معروفة ، ولكن المرء يجد نفسه مضطرا الى التذكير بها في مرحلة التزييف الفكري التي نعيشها في ايامنا هذه ، وفي زمن خرج الجردان من الجحور بعد بيات شتوي طويل، فهل يكون من حقنا، ونحن نستنكر الاستبداد الذي كانت تمارسه الانظمة الشيوعية الحاكمة على شعوب رومانيا او بولندا أو المجر، ان نحصل الي حد تنسي مع فظائع الاستعمار، الذي هو الابن الشرعي للرأسمالية ، في الكونغو وكينيا وآنغولا وبقية القارة الافريقية ومعظم بلاد آسيا؟ هل من حقنا ان تنسى وجود امبراطورية اميركية بكل معاني الكلمة، حتى عهد قريب، هي اميركا اللاتينية؟ هل من حقنا ان ننسى ان الرأسمالية لاتزال حتى هذه اللحظة تمارس اساليب الاستعمار التقليدي في شتى الجيوب الجبارة لبلاد صغيرة مغلوبة على امرها مثل جرينادا وبما حيث يتداخل القهر الاستعماري مع الاستغلال الاقتصادي مع استخدام عصابات المرتزقة مع فرض ابرشع انواع الدكتاتورية العسكرية؟ الحق ان المرء يحار في تفسير الامتصاص المفرط بالمسير الذي حل بأمريكا الشرقية على ايدي الشيوعيين ، والتجاهل التام لمسير بلاد العالم الثالث على ايدي الرأسمالية.

لا يكون ذلك راجعا الى أن الأوروبيين شعوب راقية ، لا يصح ان تهان أو تخلم ، على حين أن الأفريقيين والاسيويين والأميركيين اللاتينيين ملوثون أو مختلطون ، لا تجوز عليهم الرحمة ، ولا تنطبق عليهم مواثيق حقوق الانسان؟

إن للمرأة كل الحق في ان ينتقد بشدة الاوضاع الجائرة التي فرضتها الاحزاب الشيوعية على أوروبا الشرقية. غير أن الخطورة الحقيقية تكمن في القفز من هذا الانتقاد الى الثناء العاطر على الرأسمالية . فهذه نقلة غير جائزة ، وخاصة بين شعوب العالم الثالث التي اكتوت وماتزال . بنار الاستعمار وتسلط رأس المال. حقيقة الامر أن الرأسمالية تظل ظالمة وغير انسانية، بغض النظر تماما عما يحدث في الكتلة الشرقية.

لامفر في وقت تقيم فيه الرؤية وتغيب الحقائق الواضحة ، من أن نواصل التذكير بالبيدييات. فالانظمة الشيوعية قد اخفقت في ان توفر لمجتمعاتها مستوي جيدا من الغذاء... هذا خطأ فادح بلاشك. ولكن أيهما أكثر شرا : ذلك النظام الذي يصل الخلل والاهمال فيه الى حد العجز عن الوفاء باحتياجات أساسية للبشر، أم ذلك النظام القادر علي أن ينتج ما يفيض عنه، ولكنه يحرق العليب والزبد، ويلقي بفوائض المواد الغذائية الى البحر حتى لا تنخفض اسعارها؟ اننا لانشير هنا الى ما كان يحدث في اميركا ايام الكساد العظيم في اواخر العشرينات لمصوب، بل الى ماحدث في اواخر الثمانينات، وفي قلب السوق الأوروبية المشتركة، وفي الوقت ذاته الذي كان مئات الالوف فيه يموتون جوعا في القارة الافريقية. ومع ذلك فان هذا العيب في حالة النظام الرأسمالي، ليس ناجما عن سوء ادارة او اي خلل طارئ، وانما هو جزء من طبيعة النظام وآليات وبنيتة الاساسية.

هل نواصل التذكير ببيدييات اخرى، فنقول ان الحريات، التي كانت ممكن الضعف في اسلوب الحكم السائد في المنظومة الاشتراكية كلها، ليست مكفولة في قلاع الرأسمالية الى الحد الذي يتصوره نواب التوايا الحسنة ، وان هناك ضروريا من الازدواجية تشوه الصورة التي تبدو للسذج ناصعة البياض كازدواجية الرقابية التامة في جانب والبطالة واسعة النطاق في جانب آخر، وازدواجية السيطرة التامة للقوياء وعدم الامان للضعفاء ، وازدواجية منح الحريات في الداخل وسلب الحريات من الدول الواقعة تحت السيطرة في الخارج (تايلاند، الفلبين، الخ)... وازدواجية الابيض والملون، والمساواة النظرية في الفرص من ناحية، وانعدام وجود تكافؤ حقيقي للفرص من ناحية اخرى؟

ولو اصبر المهللون للرأسمالية علي الفاء ذاكرتهم ، ونسيان التاريخ، والتغافل عن الكوارث التي انزلتها الرأسمالية بالعالم الثالث عامة،

والمصائب التي جرتها «بركات» الرأسمالية علي العالم العربي بوجه خاص ، لتتولد قلعة الرأسمالية الكبرى في العالم المعاصر، بدلا منّا، مهمة تنشيط ذاكرتهم وايضا وعيهم، فقد جاء الغزو الاميركي لبنما تنبيهها للغافلين. ويقدّر ما تعي ذاكرتي من احداث سياسية علي مدي العقود الاخيرة ، فاني لم اصادف في حياتي تصورا اقرب من هذا الغزو. ففي الوقت الذي كانت فيه احداث اوربوا الشرقية تصل الي درجة الغليان، وفي الوقت الذي بدا فيه للكثيرين ان اكتشاف عيوب فاشحة في ممارسات الانظمة الاشتراكية، وسقوط اقوى رموز هذه الانظمة، يعني ان الرأسمالية هي البراءة والطهارة. وفي المال والمصير . في هذا الوقت بالذات، تأبى الولايات المتحدة الا ان تذكر الغافلين بان الديمقراطية التي تسهر الرأسمالية علي حراستها لها ايضا انياب ومخالب (مع الاعتذار لروح الزعيم العربي الذي ابتكر هذا التعبير البليغ)، وتتطوع بتقديم خدمة كبرى للايديولوجية المضادة التي كانت في هذه اللحظة بالذات تمر بأسوأ مراحل ازمتها ، وتتكفل. مشكورة- بتكذيب الاصوات التي انتهزت فرصة الازمة لكي تهتف: الرأسمالية هي النظام الطبيعي للانسان ! فهل كان من المحتم غزو بنما لاسقاط نورديجا في هذا الوقت بالذات؟ وهل يساوي نورديجا الثمن الفادح الذي دفعته اميركا من سمعتها، والمكسب الذي هبط علي جورباتشوف من السماء في اخرج اوقات ازمت؟ غياب منقطع النظر، دون شك، ولكنه امانا فائدة لا تقدر، لانه اعاد الي العقول الغافلة اتزانها، وتبهيها الي حقيقة بسيطة عظيمة الهمية، هي أن خطايا أحد المعسكرين العالميين لا تعني أن المعسكر الاخر هو الفضيلة المجسمة ، وهو الملجأ الاول والملاذ الاخير.

والحق أن كبريات الدول الرأسمالية في عالم اليوم لا تشارك هؤلاء «المعجبين» تفاؤلهم. فهناك نوع من القلق الخفي يستشفه المرء من ثنايا تصريحات المسؤولين في هذه الدول، وان لم يكونوا يكشفون عن بوضوح، حرصا منهم على ان يتركوا احداث اوربوا الشرقية تتفاعل الي اقصى مداها . ففرنسا تخشى من عودة الوحدة الي المانيا، ذلك الجار العملاق الذي اذاقها ويلات اربع حروب كبرى خلال القرنين الاخيرين. واوربوا الغربية ككل ترى الحل في مزيد من التوحد من أجل امتصاص خطر العملاق الالمانى ، ولكن انجلترا لا ترتاح الي وحدة «القارة». واميركا تشعر بان اوربوا الموحدة ستكون قوى منافسة لها،

وليست بالضرورة متحالفة معها، لاسيما وان التحالف العسكري قد فقد مبرر وجوده حين لم يعد هناك خصم عدواني يقوم الحلف من اجل مواجهته. وهكذا فان المعسكر الرأسمالي يشعر في داخله بأنه هو ذاته مقبل على تغيرات لا يستهان بها، قد لا تتخذ طابع العنف كذلك التي حدثت في أوروبا الشرقية ، ولكنها ستكون قطعاً عميقة الجذور.

فالرأسمالية بدورها لا بد ان تغير مسارها لتغييرات حادة حتى تتمكن من مواجهة الاوضاع الجديدة في عالم منزوع السلاح، واذا كنت قد تحدثت من قبل باستفاضة عن نزاع السلاح المادي ، وتأثيره الهائل، الذي بدأ يظهر منذ الآن في صورة شركات ضخمة للأسلحة تطلق ايوايها أو تسرح عمالها، فلنتذكر جميعاً أهمية نزاع السلاح المعنوي، ان على الرأسمالية ان تعيد تكييف اوضاعها بحيث تلائم عصراً لن تعود فيه قادرة على انتقاد الاشتراكية بحجة انها عدوانية تكبت الحريات وتلغى فردية الانسان، مع ان هذا الانتقاد هو الزاد المعنوي الذي عاشت عليه الرأسمالية طويلاً، وكسبت بفضلها عدداً لا يحصى من الأصدقاء. ولكن ماذا سيكون حالها حين تفقد هذا السلاح بدوره، وحين تبدأ الايديولوجية الخصم في سلوك ذلك الطريق الشاق والطويل الذي يؤدي الي الجمع بين الاشتراكية والانسانية في مركب واحد؟

لاشك في أن لون الحياة أمام الرأسمالية لن يكون، كما يتصور الكثيرون، وردياً. فهي بدورها مؤهلة لتغييرات حاسمة في هياكلها الاساسية، ولكن هذا يتوقف بالطبع على مدى نجاح الايديولوجية المضادة في الجمع بين الاشتراكية والنزعة الانسانية، وهو موضوع بحثنا القادم.

## الفصل السادس

# صورة المستقبل

العالم كله يتحدث اليوم عن مفاجآت غير متوقعة، ويرسم لعقد التسعينات صورة تختلف جذريا عن جميع العقود السابقة، بل يذهب البعض الى حد القول ان القرن الحادي والعشرين بدأ بالفعل منذ ١٩٨٩، مثلما بدأ القرن التاسع عشر مبكرا منذ الثورة الفرنسية في ١٧٨٩، وبدأ القرن العشرون متأخرا منذ الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤- وهي فكرة معقولة اذا اخذنا في اعتبارنا أن نقاط التحول الحاسمة في التاريخ البشري لا يتعين أن تتفق مع السنوات التي تبدأ أرقامها بأصفا . ومع اعترافنا بأن المستقبل يحمل في طياته مفاجآت كبيرة، وبأن التحولات الهائلة في الشهور القلائل الاخيرة تمثل بذرة خصبة لتغيير وجه العالم بأسره في المستقبل غير البعيد، فلماذا من الاعتراف ايضا بأن عناصر التغيير وعوامله الاساسية كانت موجودة من قبل ، وان كان العالم قد تأخر كثيرا في ادراك ما تنطوي عليه هذه العناصر من دلالات .

لقد كان التصعيد العالمي للسلاح ، وبلوغ التهديد النووي والصاروخي اقصى مداه ، هو ذاته نقطة تحول كبيرى نحو إدراك عمق الشكل السائد في العلاقات الدولية . كانت صورة الموت الذي يمكن أن يلقي بظله الاسود على العالم كله في لحظة واحدة، هي ذاتها الدافع

الأكبر الى التثبيت بالحياة. وكانت الخطوة المنطقية، بعد أن أدرك كل من الجانبين أنه يستطيع أن يفنى الآخر ويفنى العالم معه في ثوان معدودات، هي أن يفكرا معا في أسلوب آخر للتعامل بينهما، يحل فيه التفاهم والولاء محل المواجهة المخيفة.

ولكن أحد الطرفين كانت له مصلحة مباشرة في استمرار هذه المواجهة ، والطرف الآخر كانت له مصلحة مباشرة في الانتقال الي حالة التفاهم. وهكذا جاءت المبادرة من جورباتشوف، وكان أعجب ما في الامر أنه فرض هذه المبادرة على ريجان في السنتين الاخيرتين من حكمه، وأرغم هذا الصقر المتصلب على التفاهم مع من كان يسميهم «إمبراطورية الشر» لتبدأ بذلك المرحلة الاولى في التنفيذ العملي لسياسة الوفاق والتعايش والتفاهم الايجابي.

لقد كان واضحا، قبل جورباتشوف بمدة طويلة أن الرأسمالية باقية، بل إن جوانب كثيرة منها تزداد قوة. وكان واضحا أن الهدف الذي تبنته ممارسات الحركة الاشتراكية بعد ثورة ١٩١٧ مباشرة، وهو استئصال الرأسمالية بالتدرج، واحلال النظام الاشتراكي محلها، قد أصبح هدفا مستحيل التحقيق، وذلك في المستقبل المنظور على الاقل . ولكن الرؤساء المتعاقبين للاتحاد السوفياتي، على الرغم من ادراكهم هذه الحقيقة، لم يكونوا على استعداد لبناء سياستهم الرسمية على اساس الاعتراف بها ، وكان الامر يحتاج الى قدر كبير من الشجاعة من أجل اعادة رسم السياسة العامة على نحو يتلاءم مع هذا الامر الواقع، وهذا هو الدور الذي اضطلع به جورباتشوف. بل انه لم يكتف بذلك، وانما أدرك أن المعسكر الاشتراكي هو المهدد بالخطر لو استمر على جموده، ولو استمرت الفجوة بين الشعارات والممارسات الفعلية على هذا القدر من الاتساع، ولو ظل حاجز عدم الثقة، والسخط المكتوم، يحول دون تحقيق أي تجاوب بين شعوب البلاد الاشتراكية وأنظمتها . ومن هنا جاء انقلابه الكبير على جميع السياسات السابقة.

ان الكثيرين يتصورون أن جورباتشوف يهدف الى تطعيم الاشتراكية بمبادئ مستمدة من ليبرالية الغرب الرأسمالي، كمبدأ حرية التعبير وحرية الانتخاب وديمقراطية التمثيل النيابي، الخ... ولكني أعتقد أنه أدراك حقيقة أساسية لم يدركها أسلافه، وهي أن هذه المبادئ ليست بالضرورة جزءا من النظام الفكري للغرب نفسه، وليست بالضرورة متعارضة مع الاشتراكية، كما تصور الكثيرون، وانما هي جزء من

التراث الانساني بأعم معانيه. ولقد كان الاشتراكيون الملتزمون مخطئين حين هاجموا الديمقراطية السياسية باعتبارها نتاجا غريبا بحتا، ونظروا اليها على أنها جزء لا يتجزأ من آليات النظام الرأسمالية. ذلك لان هذه الديمقراطية اذا كانت قد عبرت عن نفسها تعبيرا واضحا مع مطلع العصر الرأسمالي، فلا ينبغي أن تظل هذه النشأة مرتبطة بها الى الابد. فحق الانسان في التعبير عن نفسه بحرية ، وحقه في أن يختار ممثليين عنه يتولون الحكم أو يحاسبون الحكام ويشروعون القوانين ، هذه الحقوق تعد مكتسبات عظيمة للانسانية كلها، حتى لو كان أصلها القريب راجعا الى الغرب الرأسمالي. ومن المؤكد أن جميع التبريرات التي قدمتها الاحزاب الشيوعية الحاكمة طوال العقود السبعة الماضية، من أجل عدم تطبيق هذا النوع الرفيع من الديمقراطية السياسية، كانت تبريرات زائفة ، تستهدف تثبيت شكل من أشكال الدكتاتورية ، سواء اكانت تلك دكتاتورية حزب واحد، أو فرد يعتقد أنه يجسد الحزب والدولة كلها في شخصه، مثل ستالين أو تشاروشيسكو أو كيم ايل سونغ.

ولكن، هل تستطيع الاشتراكية ان تظل صامدة لو أصبحت ديمقراطية مستندة الى اختيار شعبي حر؟ لو كانت التجربة قد اتجهت منذ البداية نحو تحقيق هذا الهدف ، وتمكنت من بلوغه، ولو جزئيا، وعلى مراحل، وبعد مواجهة كل ما يمكن أن يعترضها من صعوبات ونكسات، لكان الرد على هذا السؤال ردا ايجابيا بلا تردد. ولكن انتقال الشعوب الى اشتراكية غير ديمقراطية بعد أن جريت طويلا اشتراكية غير ديمقراطية، هو الذي يثير إشكالات ويعقد الموقف تعقيدا هائلا. ذلك لان ثقل الماضي وأخطائه الفاسدة يشكل عاملا هاما ينبغي أن يحسب له الف حساب. فالمسألة ليست مجرد اختيار مطروح أمام هذه الشعوب، وإنما هي مدى قدرتها على تصديق التحول الجديد، بعد كل احياءات التجربة القديمة ومن المتوقع ، انسانيًا ، أن تكون هناك ميل قوية الى تصفية الحسابات السابقة، والى القطيعة التامة مع الماضي، وإن يكون هناك اعتقاد واسع لدى فئات واسعة من الجماهير بأن الاشتراكية غير قابلة للإصلاح ، أو بأن الجديد لن يكون جديدا بالمعنى الصحيح ، وبأن الوعود المستقبلية لن تتحقق مادام الذين يقدمونها ممن لا تربطهم أية صلة بالعهود الماضية.

وعند هذا الموضع نستطيع أن نترك بوضوح اكبر. أبعاد المقامرة

التاريخية الكبرى التي يخزنها جورياتشوف. فهو يقامر اساسا على الدليمة البشرية، وعلى الزمن ، وكل من هذين العاملين يمكن ان يساعده ويرفعه الى عنان السماء، ويمكن ان ينتقض عليه ويهتق تجربته ويحولها الى مأساة مفعمة.

لنبدأ بالحديث عن مقاومته على الطبيعة البشرية. ان جورياتشوف لا يكف عن القول ان اهم عنصر في البيروسترويكا ، هو اعادة بناء الانسان قبل ان يكون اعادة بناء الاقتصاد او النظام السياسي. ومن الصعب في عالمنا العريى ان يأخذ احد تعبير «اعادة بناء الانسان» مأخذ الجد، بعد ان بذلته لغتنا السياسية المعاصرة الى حد لم يعد معه سوى تعبير انشائي اجوف لا يشير الى أى مضمون حقيقي، ولا يغير من الواقع شيئا. ولكن جورياتشوف يعنى بالفعل بناء انسان جديد يفهم معنى الحرية ويحرص عليها ، انسان غير تمطى وغير مقولب ، يستعيد ذاته التى كان نسيانها في سبيل مصلحة «الكل» هو فضيلة الفضائل في ظل الاوضاع السابقة، فالاعتقاد بان البعد الاجتماعى يستنفد الانسان بأكمله هو اعتقاد غير صحيح، ولكن الاعتقاد المضاد بأن على فرد ان يحقق مشروعه الخاص الى أقصى مدى ممكن، بغض النظر عن تأثير ذلك في الآخرين- وهو جوهر العلم الرأسمالي الاميركي- هو اعتقاد غير انساني. وعلى ذلك فان عملية اعادة البناء التي تستهدفها البيروسترويكا هي في صميمها استفادة للتوازن بين الدوافع الفردية والدوافع الجماعية في الانسان.

ويبدو أن جزءا أساسيا من رهان جورياتشوف يتركز على اعتقاد صحيح من الوجهة النظرية ، وهو أن الانسان الذي عاش في ظل الاشتراكية متمتعا بالامان والضمان الذي يكفله له المجتمع، وأن كان مفتقرا الى الحرية والقدرة على المشاركة سياسيا واجتماعيا، سيشعر بأن أقصى أمانه قد تحققت لو أضيف عنصر الحرية والديمقراطية الى عنصر الامان والضمان. ولكن هذا الرهان يغفل ، من الوجهة العملية ، شيئين يمكن أن تكون لهما عواقب خطيرة: أولهما الرغبة المتعطشة في تصفية الحسابات مع الماضي، التي قد تصل الى حد الاعتقاد بأن الاشتراكية. مهما اتخذت من أشكال، غير قابلة للإصلاح: فهي أشبه بمجرم يستحيل أن تقبل توبته، لان سوابقه أكثر وأندج من أن تسمح بالثقة فيه . وهكذا فان التهر الذي مرت به الشعوب الاشتراكية يمكن أن يجعل رؤيتها متجهة الى الانتقام من الماضي أكثر مما هي متجهة الى



## بناء المستقبل.

ومن ناحية أخرى فإن رهان جورياتشوف على الطبيعة البشرية يفشل الجانب المادي فيها الى حد بعيد، فالرهان يتصب على الايمان بأن الشعب الذي مر بتجربة الاشتراكية ولكنه عانى خلالها من القهر، سيسعيد ثقته بهذه التجربة بمجرد ان يزول عنه القهر، وأن يقبل العيش في ظل الرأسمالية مهما قدمت له من اغراءات غير ان هذا الرهان ربما كان ينطوي على نظرة مثالية أكثر مما ينبغي الى طبيعة الانسان. ذلك لان الغرب الرأسمالي يراهن على الجانب المضاد، أعنى الجانب المادي ويركز على «الحرمان» الذي تعانيه الشعوب الاشتراكية من الماكولات والملابس والاهزة الحديثة، الخ.. ولما كان من الصعب، في المدى المنظور، ان توفر اصلاحات جورياتشوف مثل هذه السلع المادية للناس، فمن الممكن ان يؤدي ذلك الى خسارته للرهان والتي تراكض هذه الشعوب وراء «الرخاء» الرأسمالي.

وهذه مسألة لا يصح ان يستخف بها من يسعى الى تكوين رؤية مستقبلية لما ستؤدي اليه بيرسترويكا جورياتشوف. ذلك لان الاغراءات المادية امر لا يمكن الاستهانة به في سلوك الجماعات البشرية. ولقد رأيت بنفسى مدى تعطش شيان وفتيات باعداد كبيرة في الاتحاد السوفياتي وبلاد اشتراكية اخرى الى اشياء تبدو في نظرنا تافهة، كالملايسه الجينز، والساعات الرقمية والمسجلات اليابانية ، الخ... ورأيت بنفسى كيف ان قطعة اللبان الاميركي او سيجارة اميركية يمكن ان تكون موضوعا للهفة الانسان في هذه البلاد ، وعجبت وقتها كيف لم يتمكن التعليم والتنشئة الاجتماعية من اقناع الناس بأن من الممكن الاستغناء عن الاشياء الصغيرة في سبيل الاهداف الكبيرة. ومازالت أذكر كيف ان معظم الضباط العرب الذين كانوا يتلقون دورات تدريبية في الاتحاد السوفياتي، كانوا يعنون غير متعاطفين مع التجربة السوفياتية ، فاذا سئلوا عن السبب كانت اجابة الغالبية الساحقة منهم تتعلق بأمر مادية، كالسيارة او الملايس او أماكن اللهو والترفيه، ونذر أن تجد منهم من يحدثك عن انعدام حرية الفكر او تسلط الحزب الواحد او غير ذلك من الجوانب المعنوية.

ويمكن القول ان هذا الرهان على الجانب المعنوي او الجانب المادي من الطبيعة البشرية يشكل ساحة حقيقية لمعركة تدور حاليا في الخفاء بين المعسكرين الكبيرين. ومن الغريب حقا ان الجانب الذي توصف

ايدولوجية بانها مادية، هو الذي يراهن على متعويات الانسان، على حين ان الجانب الرأسمالي «حامي حما الروح» و «نصير الاديان» الخ، هو الذي تركز دعايته على ماتعانيه شعوب المعسكر الاشتراكي من نقص في الفواكه واللحوم، وعلى طواوير الخبز، وما الى ذلك من مظاهر الحرمان المادي التي يستحيل على ابي مصلح ان يوفرها لشعبه ما بين يوم وليلة، اذا كان قد اتى الي الحكم بعد مرحلة طويلة من التخطيط وسوء الادارة.

ولنتنقل الي الحديث عن العامل الاخر في مقاومة جورباتشوف الكبرى، واعنى به مقاومته على الزمن. فكل ما يراهن عليه جورباتشوف يحتاج الى وقت. ولو تصورنا ان الاصلاح الاقتصادي، مثلا ، يمكن ان تظهر ثماره في المدي القريب لكنا متفائلين الي حد السذاجة. ذلك لان الوفرة في نفقات التسليح لن يتم الا بعد وقت، وانعكاس هذا الوفرة ايجابيا على الاقتصاد يحتاج الي وقت آخر، وازالة اثار البيروقراطية والجمود وسوء الادارة وفساد اللزم تستغرق وقتا لا يستهان به. ولذا فان اولئك الذين يكررون ليل نهار انهم لم يلمسوا في الاتحاد السوفياتي تحسنا في الانخفاض الاقتصادية خلال عهد جورباتشوف، لا يستهدفون من ذلك الا خداع العالم، لانهم يعملون جيدا ان ثمار اتجاهاته الجديدة يستحيل ان تقطف الان، ويعلمون انه مازال في مرحلة خووف المعارك الضارية التي سيصبح في امكانه، لو كسبها، ان يضع الاسس لبناء اقتصاد الفضل.

ومن جهة اخرى فان الاصلاح السياسي، وارساء دعائم الديمقراطية الحقيقية داخل اطار من الاشتراكية ، هو تجربة غير مسبوبة ، تحتاج الي ابداع وابتكار لانظير لهما. ونحن ننظر الى ارض الواقع سنجد ان تقبل الجماهير، في البلاد الاشتراكية، لهذا النوع من الاصلاح، يحتاج الى وقت، ولايد هنا من التمييز، كما قلنا من قبل ، بين رد الفعل في المدى القصير ورد الفعل في المدى الطويل. ذلك لان رد الفعل المباشر كان سلبيا الى حد بعيد ، وهذا امر يستطيع « أن يتوقعه اي مبتدئ في التفكير السياسي. فالجماهير المكونة لايد ان تتفجر اذا ما تحورت من القوة التي كنت تكبتها. وقد اخذ جورباتشوف على عاتقه عملية التحرير هذه حين امر القوات السوفياتية بعدم التدخل، وفتح بذلك الباب امام ثورة الجماهير في اورنوا الشرقية.

ومن المتوقع تماما في المرحلة الاولى ان تكون رمود الفعل عنيفة.

وان تعمل الجماهير على محو كل ما يذكرها بالعهد السابق، ومن هنا كان تغيير اسم الحزب الشيوعي في بعض هذه البلدان ، وإلغاء النص الخاص بانفرادة بالسلطة في البعض الآخر، وظهور محاولات لحظر قيام أي حزب شيوعي في المستقبل . وهذا هو رد الفعل المتوقع، في مثل هذه الظروف، خلال المدى القريب. ولكن الأمور لابد ان تتغير في المدى الأبعد، ولابد ان يعود الاتزان الى عقول الناس، بعد ان ينفسوا عن غضبهم ويصفوا حساباتهم ، فيبدأون في البحث عن مصالحهم الحقيقية . ولاشك في ان تجربة ازالة جدار برلين كانت لها دلالة خاصة في هذا الصدد. ففي البدء تدفق اللاجئين بعشرات الألوف، وفي نيتهم ان يرحلوا بلا عودة. ولكنهم بعد ان اطمأنوا الى أن الأوضاع الجديدة ستمتد، وان وطنهم وبيتهم لن يكون بعد ذلك مكانا للقمع وخنق الحريات ووشايات الأجهزة الامنية، عاد معظمهم الى بلدنهم، وبدأوا يشاركون في البناء الجديد.

ان الأوضاع التي تجتاح أوروبا الشرقية الان لن تدوم، ولابد أن يكون المستقبل شيئا مختلفا عن هذا الوضع المؤقت، وعن الوضع المهيمن السابق عليه. وليس في وسع احد أن يتصور أن بلدا مثل رومانيا ستعيش في ظل هذا التخطيط الذي جعل رئيس الدولة ينقاد لمظاهرة غاضبة محدودة العدد ، فيلقى الحزب الشيوعي، ثم يعود بعد يومين فيلقى الإلقاء ويقرر الاستفتاء، ثم يعود بعد يومين آخرين فيلقى الاستفتاء ، هذا أسلوب غوغائي في الحكم، يستحيل أن يدوم طويلا، ولابد أن يبدأ الشعب نفسه في البحث عن مصالحه الحقيقية بعد أن تنتهى فترة تصفية الحسابات الماضية. ولكن هذه الفترة ستطاول من بلد الى آخر، ومن المتوقع أن تطول فترة الغضب تبعا لمدى ارهابية النظام الذي كان سائدا في كل بلد على حدة فويتما لعداثة الثمن الذي دفعه هذا البلد في الثورة على الأوضاع القديمة.

على أن من المهم الى أبعد حد أن نشير، في صدد الكلام عن عامل الزمن هذا، الى الزمان المضاد الذي يقوم به أولئك الذين لا يريدون للتجربة الجديدة أن تنجح، ذلك لان الوقت او اتسع لكي تنجح تجربة الجمع بين الاشتراكية والديمقراطية في إطار واحد ، وكانت تلك التجربة خطرا ماحقا يمكن أن يتسبب بعائم النظام الرأسمالي، في المدى الطويل، بهنوه تام، وبلا سلاح أو حرب، وفي تصوري أن الجمع بين الأمان والضمان الذي تحققه الاشتراكية، والحرية التي تحققها

الديمقراطية، حتى لو اقترن بمستوى مادي متوسط، ستكون له قوة جذب هائلة يمكن أن تؤدي مع الوقت الى غزو قلاع الرأسمالية في أوروبا على الأقل. هذا فضلا عن تدعيم الاشتراكية في نفس البلاد التي تبدي أشد السخط عليها في الآونة الحالية . ولاشك أن القوى المضادة لهذه التجربة تعي هذه الحقيقة جيدا ،ولذا نراها تسعى الآن بكل ما ملكته من قوة لكي تززع اسس هذه التجربة وهي لاتزال في مهدها، فإعداد هذه التجربة يدركون انهم، ان لم يضربوا محاولة إقامة اشتراكية ديمقراطية في اللحظة الراهنة، وهي لاتزال في موقف الضعف، فسيكون من الصعب عليهم المساس بها في أي وقت من المستقبل، بل سيكون من الصعب إيقاف مداهم حتى في معارقلهم الخاصة، ومن هنا كان الزهقان المضاد هو: اهدم هذه التجربة الآن . قبل أن تصبح نموذجا مغريا للجميع! ومن أجل ذلك . كان من حق المرء أن يستنتج أن جورباتشوف لو صمد بتجربته هذه سنة أو سنتين أخريين، دون أن يحدث شيء يهدمها من أساسها، فلن تستطيع أية قوة أن تمس تجربته الجديدة التي ستكتسب عندئذ قوة جذب لاتقاوم.

ولنلخص ما توصلنا اليه حتى الآن من نتائج بشأن تلك المقامرة التاريخية الكبرى التي يقوم بها جورباتشوف . فنقول انه يراهن على قلب الجانب المعنوي في الطبيعة البشرية . وعلى الصمود سنوات قلائل حتى تتاح لتجربته فرصة الكشف عن امكاناتها . على حين أن خصومه يراهنون على غلبة الجانب المادي في الطبيعة البشرية، وعلى تكديس المشاكل أمام التجربة الجديدة من أجل هدمها في أقرب وقت ممكن، أو على الأقل من أجل العيلولة بينها وبين تحقيق ذلك النجاح الذي سيكون مؤكدا لو أتاحت لها الفرصة الكافية. ولاشك أننا نقرأ كثيرا في هذه الايام عن رغبة العالم الغربي في مساعدة جورباتشوف . ومساندته لاصلاحياته، مما يولد لدى القارئ انطباعا بأن «الرهان المضاد» الذي اتحدث عنه هاهنا ماهو الا تعبير عن مخاوف ليس لها من أساس. ولكن هذه المساعدة والمساندة هي الوجه الظاهر لموقف القوي، الذي تتقرر سياسته على مستويات متعددة . منها ماهو واضح مكشوف ومنها ماهو خفي مستتر ومن المؤكد أن الغرب مضطر الي تأييد جورباتشوف بعد تلك الشعبية الساحقة التي نالها بين الشعوب الغربية ذاتها، والتي يقول البعض انها فاقت شعبيته حتى لدى شعبه هو . ولم تكن تلك الشعبية مجرد رد فعل عاطفي . وانما كانت راجعة في المحل

الاول الى الرغبة المتأصلة في السلام، والخوف العميق من حالة الصراع المسلح التي تهدد العالم بالانفجار في أي لحظة ، والوعى المتزايد بالخطر التي تتعرض لها البيئة على مستوى كوكبنا بأكمله، وهذه عوامل ينبغي أن تعمل لها أية حكومة في القرب ألف حساب.

ولكن لابد أن يكون هناك على المستويات غير المعلنة، خوف شديد من أن تنجح تلك التجربة التي يمكن أن تحقق حلما عجزت البشرية حتى الآن عن تحقيقه، وهو الجمع بين العدل الاجتماعي والحرية الانسانية في إطار واحد . ومن هنا فإني أؤمن بأن الزمان المضاد حقيقة واقعة.

ان الجميع يتحدثون الآن عن عصر جديد ستؤدي سياسة جورباتشوف الى دخول البشرية فيه، عصر تتوقف فيه الصراعات الداخلية بين الايديولوجيات، لتحل محلها صراعات ضد القوى المعادية للانسان أينما كان. هذا العصر، كما يقول معظم الكتاب، هو عصر تراجع الايديولوجيا، أعني أنه العصر الذي لن يكون للصراع بين الاشتراكية والرأسمالية فيه تلك الامة التي كانت له منذ بداية القرن العشرين على الأقل، وإنما سينصب الاهتمام كله على ما هو أهم: مشكلات البيئة التي يظهر لنا في كل يوم بمزيد من الوضوح أنها لاتحل الا على نطاق عالمي، ومشكلات السلام العالمي ونزع السلاح، وهي بدورها مشكلات تمس مصير الانسان على هذا الكوكب، ولا يمكن أن يقتصر تأثيرها على هذا المعسكر أو ذاك، وأخيرا، مشكلات التكنولوجيا، التي يتيح التقدم فيها أفاقا لم تكن تعلم بها البشرية من قبل ، والتي تهشركنا منذ الآن بعهد تنعم فيه بوفرة في الانتاج المادي بوفرة في المعلومات الذهنية علي نحو كافي بأن يجعل عصورنا الحالية تبدو عصورا بدائية بحق.

هذه الاحتمالات الممكنة هي حديث الساعة في أيامنا هذه، وهي لم تعد أحلاما خيالية، بل أن تحقيقها بات في متناول أيدينا ، وبإرادتها أخذت تظهر أمام أعيننا من الآن. ومع ذلك فإنني أجد نفسي في موقع الاختلاف مع أولئك الذين يتصورون ان عصر التعاون من أجل حل المشكلات ذات الطابع الكوني سيحل حتما محل عصر الصراع بين الايديولوجيات . ففى رأيي أن حلول هذا العصر، الذي هو بغير شك غاية يطمحها كل شخص يحترم انسانيته ، لن يتحقق الا اذا نجح جورباتشوف في تثبيت دعائم تجربته الجديدة. فما زال أمامنا وقت قبل أن يكون في وسعنا التحدث عن يلوغ البشرية سن الرشد، وانتقالها من

صراعات الاخوة الاعداء الي التكاثر من أجل مواجهة المشكلات الكونية، ولو اخفقت تجربة جورباتشوف، لكانت نتائج النكسة بشعة، ولاصبحنا أبعد عن ذلك التعاون العالمي مما كنا في أي وقت مضى. وأنا على ثقة من أن القارئ يتعامل الآن: حسنا ، ماضي احتمالات النجاح؟ هذا ، في رأيي، هو السؤال الصعب حقيقة. فلنكن نكون الاجابة ممكنة، ينبغي أن تكون المعطيات كلها أمامنا، وأن تكون معقولة قابلة للحساب. ولكن يكفينا مثال واحد لكي ندرك صعوبة الاجابة عن هذا السؤال. فالاضطرابات بين الاندريجانين والارمن، مثلا، تقوم على رواسب قديمة منها ماضو عرقى، وماهو طائفى ، ولكن كلها رواسب لا عقلية يصعب حسابها، ومن ثم يصعب التنبؤ بها. ومثل هذه العوامل اللاعقلية يمكن أن تتدخل في أية لحظة وتشكل عقبة خطيرة في وجه التجربة الجديدة، وتثبت أن الطبيعة البشرية التي راهن عليها جورباتشوف مازالت تنطوى على عناصر ظلامية سوداء يصعب اخضاعها للحساب العقلي.

إن جورباتشوف يبدو لي احيانا قريب الشبه بإبطال التراجيديا الافريقية ، وكثيرا ما يبدو مهددا بمأساة تحكيها قوى الشر التي لن تتنازل عن عالمها بسهولة. ولكنني أؤثر الانحياز الي جانب التفاؤل في معظم الحالات: ذلك لانه إذا ظل صامدا فسوف يكسب العالم الكثير، وإذا تهاوى فسوف تهاوى معه آمال عريضة نسجتها البشرية كلها حول عصر جديد تبلغ فيه الانسانية، لأول مرة، سن الرشده .

## الفصل السابع

# وأين العرب من هذا كله؟

إن الحقيقة الأساسية التي توصلنا إليها التحليلات السابقة هي أن تجربة جورباتشوف، أو أعطيت الفرصة كيما تحقق امكاناتها، لابد ان تؤدي الي كسر حدة الصراع بين المعسكرين، وزوال الهوس العسكري العالمي وقيام كل طرف من أطراف الاستقطاب الدولي بتنازلات أساسية، وحدث تغييرات حاسمة علي خريطة العالم، لا تقتصر على المعسكر الاشتراكي، كما هو حانث الآن، بل يمتد تأثيرها بعمق في قلب المعسكر الرأسمالي في المدى البعيد. صحيح أن النظامين سيحتفظان بقدر غير قليل من الاختلاف فيما بينهما، ولكن الذي سيزول هو ذلك الهدف الذي ظل كل منهما يتخذه غاية قصوى لاستراتيجيته ، وهو إزالة النظام الآخر والحلول محله، سواء بالقوة العسكرية أو بالضغط الاقتصادي أو بالتغلغل والتآمر وتآليب الشعوب. فلن تعود هناك علاقة إما قاتل أو مقتول بين الرأسمالية والاشتراكية. ولن يكون هناك إصرار على أن يسود العالم نظام واحد هو الذي يتمكن من الانتصار في نهاية الامر، بل سيسود المجتمع العالمي نوع من التعددية، مشابه لذلك الذي تحرص الدول الديمقراطية على وجوده داخل المجتمع الواحد. ولا يقتصر معنى هذه التعددية على التعايش بين الايديولوجيات المتبادلة ، بل إنها تعنى ايضا تعددا في مراكز القوى العالمية . فنعذ

الان يستطيع المعلقون السياسيون أن يلاحظوا إمكان ظهور مركز قوى فى أوروبا، التي يسعى جورباتشوف الى الاندماج فيها دون حواجز، يقف نداً أمام مركز القوى الاميركي، بينما يقابله هي الشرق الاقصى مركز قوى خطير تمثله اليابان ومعها الدول الصغيرة ذات الثقل الاقتصادي المتزايد، مثل كوريا وتايوان وسنغافورة، أما الصين فمن الممكن أن تصبح مركزاً قائماً بذاته، بفضل وزنها السكاني الهائل، وذلك اذا نجحت في شق طريقها، ولو بقدر محدود، في عالم التقدم التكنولوجي، وكما يلاحظ القارئ، فان مراكز القوى تقفز من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، وتمر على ما بينهما مرور الكرام. «وما بينهما» هذا يشمل، بالطبع، منطقتنا العربية، فأين نحن من هذا كله؟ وما تأثير هذه التحولات الهائلة علينا ؟ ان موضوعاً كهذا ، يمكن أن يعالج من زوايا متعددة. وسوف نختار هنا، عامدين، بعض الزوايا التي نراها أساسية في الموضوع، على أن يتذكر القارئ أن هذا الاختيار تمليه اعتبارات ضيق المكان والزمان، وأن للموضوع أبعاداً أخرى عظيمة الأهمية، لابد أن يتصدى لها المفكرون العرب حتى يعينوا وطنهم على التاهب لمواجهة المتغيرات الهائلة التي سيأتي بها الغد القريب.

إن هناك انزعاجاً عاماً من تراجع الاهتمامات الخارجية للكتلة الشرقية ، وانكفائها الى الداخل في محاولة لاصلاح ما أفسدته سياسات جامدة، أوقفت نمو هذا المعسكر طوال عشرات السنين، ويمتد هذا الانزعاج الى سياسات التهدة والوفاق، التي تسعى الي تجنب أى احتكاك مع المعسكر الغربى، وتسارع الي تحقيق التفاهم معه كلما حدثت أزمة في المناطق التي كان المعسكران يتنافسان فيها من قبل . ولقد كان لهذا التنافس فوائده الواضحة بالنسبة الي العالم الثالث، إذ استطاع عدد من زعمائه أن يفتنوا لعبة الحصول على المكاسب من أحد المعسكرين من خلال تهديده بالتقارب مع المعسكر الاخر، بل إن مجرد وجود معسكر اشتراكي متاوئ للمعسكر الرأسمالي ، الذي تنتمي اليه جميع الدول الاستعمارية السابقة، كان في حد ذاته مكسباً كبيراً للعالم الثالث، إذا انه لولا وجود هذا المعسكر، ولولا اتخاذ موقف الترقب والمواجهة إزاء المعسكر الرأسمالي، لما كسب العالم الثالث معظم معاركه التحررية، وخاصة في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية . ففي موقف المواجهة واستعداد كل من المعسكرين لارسال ' صواريخه النووية من أجل تدمير المعسكر الاخر، استطاعت دول كثيرة في العالم



الثالث أن تنتهز فرصة الشلل المتبادل بين العاملين لكي تقوِّز بتحررها واستقلالها، فضلاً عن أن المعسكر الاشتراكي ساندما بقوة لكي يحرم المعسكر المنافس من الامتيازات التي كان يجنيها من بسط نفوذه فيها

لقد شعر الكثيرون بالجزع من جراء انتهاء وضع المواجهة هذا، وحلول التقام والوفاق محله. وكان من العيب أن يعزبهم بعض المفكرين من لوى النزعة الانسانية العالمية بالقول ان مصالح الانسانية ككل يتنبى تقليبها على مصالح أية دول أو مجموعة من الدول، وأن الوفاق والاتجاه الى نزع السلاح مكسب للانسانية كلها. ومن ثم ينبغي تقليبهم على الفسائر التي قد تحدث لهذه المنطقة من العالم أو تلك، ذلك لان منطق المصالح لا يمكن اختفاؤه من العالم بين عشية وضحاها. ومن جهة أخرى فإن أي وفاق يحدث بين الكبار لن يلغي الظلم والتفاوت والرغبة في تحقيق العدالة بين العالم الثالث.

وأبسط دليل على ذلك انه، في نفس اليوم الذي كان فيه الملايين يسافرون من ألمانيا الشرقية، بعد هدم جدار برلين، وهو كما يبدو مكسب كبير للمعسكر الغربي، كان ثوار السلطانور يهاجمون قصر الرئاسة ويتحركون كما يشاؤون في العاصمة، ويمرغون سمعة النظام الحاكم، الذي يدافع عن مصالح المعسكر الغربي، في التراب، وكان ذلك تزامنا رمزيا بالغ الدلالة.

وفي اعتقادي أن المنطقة العربية ستكون من أكثر المناطق تائرا بتلك التحولات الضخمة التي تطرأ على العلاقات بين المعسكرين الكبيرين، بل أن نتائج تلك التحولات، بالنسبة اليها ستكون مصيرية، ومن هنا فإن الامر يحتاج منا أولا الى فهم عميق لطبيعة الاحداث الحالية واحتمالاتها المستقبلية، وثانيا الى استعداد لمواجهة التغيرات الحاسمة المتوقعة في المستقبل القريب والبعيد، لا من منظور مصلحة الانظمة الحاكمة، كما يفعل الكثيرون في هذه الايام، بل من منظور المصالح الحقيقية للامة العربية، وقدرتها على أن تجد لنفسها مكانا وسط هذا العالم الدائم التجدد.

ان النعمة العامة السائدة بين المفكرين العرب ازاء هذه التطورات الاخيرة في الكتلة الشرقية، وما يمكن أن يترتب عليها من تغييرات في السياسة العالمية، هي نعمة التشاؤم. ولهذا الموقف ما يبرره دون شك. غير أنني أستطيع أن أجد عنصرا ايجابيا واحدا على الاقل يمس

جانبها هاما من جوانب السياسة العربية على الصعيد الداخلي، وأعطى به انبثاق وعي عالمي حاد بأهمية الديمقراطية. وتأتى أهمية هذه المسألة من أن الفكر العربي كان يرتكب في هذا الموضوع خطئين أساسيين، أحدهما هو الاعتقاد بأن الديمقراطية فكرة غربية في الأساس، لا يصح أن نقتبسها في مجتمعاتنا إلا إذا أدخلنا عليها تعديلات أساسية وربما كان الأفضل في نظر البعض الاستغناء عنها كلية ، أما الخطأ الثاني فهو أن الديمقراطية تتعارض مع المصمى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، وأن حاجتنا إلى العدالة هي الأساس، وأن المجتمع الذي لا يبدأ بتحقيق العدالة الاجتماعية ينتهى به الأمر إلى ديمقراطية زائفة ، فالتوقف قليلا لتحليل هاتين الفكرتين.

إن في أدبياتنا السياسية العربية فكرة شائعة مفادها أن مفهوم الديمقراطية نتاج للحضارة الغربية لا يصلح إلا لهذه المجتمعات، ومن العجيب أن كثيرا من فصائل اليسار الماركسي، واليمين الإسلامي، تتفق على هذه الفكرة، وكل ما في الأمر أن اليساريين يضيفون في أغلب الأحيان صفة «الليبرالية» إلى كلمة الديمقراطية ويروبطون بينها وبين نشأة الفكر البودجوازي الأوربي وظهور الرأسمالية في مطلع العصر الحديث على حين أن الإسلاميين يؤكدون الأصل الغربي «اليوناني» للفظ الديمقراطية، ويرون في هذه الفكرة نتاجا للحضارة الغربية منذ عهد أبعد بكثير، لأصلة بينه وبين تراثنا الإسلامي ، وكل هذه المقدمات صحيحة بلاشك، ولكن النتيجة المستخلصة منها، وهي أن الديمقراطية لا تصلح إلا للمجتمعات الغربية، باطلة كل البطلان. وحسبى أن أذكر القارئ هنا بما قلته مرارا في مواضع أخرى، وهو أن كل الأفكار العظيمة في العالم يكون لها في البدء أصل معين ، وترتبط نشأتها ببيئة وظروف محددة، ثم تتجاوز هذا الأصل وتتعداه، وتصبح مكسبا للإنسانية جمعاء وقد أثبتت الأحداث الأخيرة أن الديمقراطية والحريات المرتبطة بها تمثل مطلباً أساسياً لمجتمعات تتر بتجربة مضادة للرأسمالية الليبرالية الغربية، وأن زعيم الشيوعيين الحالي في الاتحاد السوفياتي لا يرى أي تعارض بين التمسك بالاشتراكية والمناداة بالحريات الديمقراطية، على عكس ما كانت تؤكده معظم فصائل اليسار في دول العالم الثالث، ولا بأس هنا من إشارة سريعة، قد تبدو خارجة عن الموضوع، إلى أحداث قريبة العهد، بحضت الادعاء الآخر القاتل أن العالم الإسلامي لاتلائمة الديمقراطية «المستوردة من الغرب» فقد

اثبتت الانتخابات الباكستانية التي انتصرت فيها بي نظير بوتو ابنة الزعيم الباكستاني الذي وصفته جميع التيارات الاسلامية بالعلمانية، ان ذلك الشعب المسلم لم يجد أي تعارض بين عقيدته وبين ممارسة الديمقراطية، بمعناها الانساني العام، وأنه حين واثقه الفرصة عرف كيف يختار بطريقة واعية ناضجة ، على الرغم من جميع الظروف الصعبة التي يعانها.

أما الخطأ الثاني الذي كان الفكر العربي يقع فيه بشأن الديمقراطية، فهو الاعتقاد الذي شاع طويلا بأن هناك تعارضا بين الديمقراطية السياسية وما يسمى بالديمقراطية الاجتماعية، أو بين الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية. فقد انتشرت بيننا فلسفة تبناها «الميثاق» المصري في أوائل الستينات، كما تبنتها بعض الأحزاب العربية ذات الاتجاه القومي، تؤكد أن الديمقراطية النيابية المرتكزة على الحريات المعروفة (حرية التفكير والتعبير والعقيدة، الخ..) تظل شعارا شكليا أجوف خاليا من المضمون، مادام المجتمع مفتقرا الى تحقيق العدالة الاجتماعية. فالشعب الجاهل ، الجائع، المريض، لايعرف كيف يمارس حرياته أو يختار ممثليه، بل ان ممارسته للديمقراطية تنتهي عمليا الى سيطرة اصحاب المال والارض والنفوذ عليه، فتتحول تلك الديمقراطية اخر الامر الى خدعة ومهزلة. هكذا قيل لنا، وعلى هذا النحو كانت تفكر الاجيال الوسطى والجديدة في عالمنا العربي. ولكن اذا لم يكن مثال باكستان الذي قدمته من قبل كافيا لاتناعنا ببطلان هذا الرأي، فان أحداث أوروبا الشرقية تمثل تكلبيبا مدويا له. فمع كل عيوب الانظمة الحاكمة السابقة في هذه البلدان، لاينكر أحد أنها قدمت لشعوبها، في ميدان العدالة الاجتماعية، أضعاف ما استطاع أي حزب أو تحالف شعبي عربي أن يقدمه لشعبه.

ومع ذلك فان هذه الشعوب ثارت مطالبة بالحرية والديمقراطية، وأسقطت أولئك الذين استغلوها باسم الاشتراكية ونشروا الظلم باسم العدالة، وطالبت بحقوق قانونية ودستورية انسانية، وأكدت بأبلغ تعبير أن كرامة الانسان لا تنفصل عن آدميته ، وأنها مطلب يستحيل التنازل عنه مقابل أية مكاسب مادية تزعم الانظمة أنها تقدمها الى شعوبها. ومن هنا فاني أعتقد أن أحداث أوروبا الشرقية قد أسدت الى العالم العربي خدمة كبرى على صعيد المبادئ السياسية التي تطبق داخل المجتمع، لأنها دعمت الدعوة الى الديمقراطية، وأكدت أن مطلب الحريات

التي توصف بأنها «ليبرالية» يتجاوز حدود الثقافات والايديولوجيات، وفندت المزاعم التي راجت بيننا طويلا حول التعارض بين ممارسة الحرية وتحقيق العدالة الاجتماعية، وأكدت أن القيم الانسانية العليا تسير كلها جنبا الى جنب، ومن المستحيل أن يكون الثمن الذي يدفعه الانسان مقابل سعيه وراء احداها هو تنازله عن الاخرى.

ولكن هل تؤدي تلك التغييرات العالمية ، التي بدأتها أحداث أوروبا الشرقية، الى نتائج ايجابية مماثلة على صعيد السياسة الخارجية العربية؟

الحق أن الصورة في هذه الحالة تبدو قاتمة. فهناك شعور جارف لدى العرب بأنهم فقدوا، بعد هذه الاحداث، حليفا كان يسانداهم في وقت الشدة ، وبأن اهتمام السوفييات وبلاد الكتلة الشرقية سيتركز من الآن فصاعدا على اصلاح الاوضاع الداخلية المتردية أولا، ثم يتجه صوب أوروبا الغربية لتحقيق مزيد من الاندماج والتوحد معها، ويتجه الى أميركا لتهدئة أجواء التوتر معها، ولأنها الطرف الذي لاغناء عنه في عملية نزع السلاح ، أما الشرق الاوسط فربما اتي دوره في المراتب الاخيرة من هذه الاهتمامات.

وفي تصوري أن هذا الاحساس بخياع حليف قوي للقضية العربية له بالفعل ما يبرره، في ضوء الاستراتيجيات العالمية الجديدة للاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي ككل، قبل أن نفكر في التثديد بهذا الوضع الجديد، أو مهاجمة جورباتشوف الذي ادت سياسته الى هذا كله ، ينبغي أن نسال أنفسنا: هل كنا ، في أي وقت اسدقاء حقيقيين للاتحاد السوفياتي والمعسكر الشرقي؟

الحق أننا لم ننتبه الى قيمة هذا الصديق وفائدته لنا الا بعد أن احسنا أننا فقدناه، أو بسبيلنا الى فقدانه (تماما كما يحدث في حياتنا الثقافية، حين نتجاهل الكاتب أو الاديب وهو يقدم الينا عطاءه السخي خلال حياته، ولانبدأ الاحساس بقيمته الا بعد وفاته). ففي الوقت الذي كان فيه السوفييات يقدمون الينا اقصى ما تستطيع امكاناتهم تقديمه من المساعدات العسكرية مثلا، وضعنا اسلحتهم في ايدي عسكريين جهلاء مخربين، فجاء عنوان عام ١٩٦٧ وجمعها كلها في صحراء سيناء، والحق بنا هزيمة عسكرية تاريخية، ومع ذلك القينا اللوم كله على « الروس » ، وسارت المظاهرات في أرجاء العالم العربي (بإيحاء من بعض الانظمة القائمة عنئذ) تهاجم السفارات السوفياتية

وترجمها بالحجارة.

وعندما اعتدلت أوضاعنا العسكرية في ١٩٧٣ وألحقا بالعدو أول هزيمة حقيقية في تاريخه، لأسباب من أهمها نوعية الأسلحة التي حاربنا بها (كما اعترف الرسميون جميعا في المراحل الأولى من تلك الحرب)، انقلبنا عليه بمجرد أن تغير ميزان المعركة، وكانت الشعاع التي طلقنا عليها الهزيمة الأخيرة هي أيضا «الأسلحة الروسية» وكانت القرارات السياسية المعادية للسوفيات، قبل المعركة وبعدها، استفزازية إلى حد لا يتحمله من له صبر أيوب. وهكذا لم نكن نحن أصدقاء حقيقيين للسوفيات في الوقت الذي كنا نلتفح فيه باقصي ما تسمح له مواردهم المحدودة بتقديمه.

وكما كان العرب أصدقاء سيئين، فقد كانوا أيضا أعداء سيئين: فالمفروض أن العدو الحقيقي هو السياسة الأميركية المتحيزة بالكامل إلى إسرائيل، ومع ذلك فبقدر ما كانت سياستنا الإعلامية تهاجم أميركا على المستوى الكلامي، كانت سياستنا الفعلية ترتمي في أحضانها وتتحاز لأهدافها انحيازًا يكاد يكون كليًا.

وعلى ذلك، لماذا كنا اليوم نتهاكي على ضياع التأييد السوفياتي، وعلى استفراد أميركا بالمنطقة، فلابد أن نعرف بأننا لم نكن نحمل ذرة من التعاطف مع من كان يصادقنا، أو ذرة من العداء لمن كان- ولا يزال- يعادينا، وأن سياستنا السابقة تجاه الصديق السابق لاتشفع لنا لديه الآن حين يجد نفسه مضطرا إلى إعادة النظر في أولوياته، ولا تدفع العدو (الذي يظل محبوبا مهما فعل) إلى أن يعمل لنا في استراتيجيته المستقبلية أي حساب جاد.

لقد حدثت متغيرات المعسكر الشرقي، وهي متغيرات ليست في صالحنا بغير شك، ولكننا قبل أن نلوم العالم ومتغيراته، ينبغي أن نوجه قدرنا كبيرا من اللوم إلى أنفسنا. ويكفي أن لسان حالنا، حين نأسف على تراجع التأييد الذي كنا نلقاه من هذا المعسكر، يقول: كم من المصاعب تنتظرنا لو ضاعت منا المساعدات العسكرية والاقتصادية والسياسية التي كنا نلقاها من هؤلاء الشيوعيين الأوغاد.

وثمة ما هو أخطر من ذلك على سعيد المواجهة العربية الإسرائيلية. ذلك لأن القيادات الجديدة في أوروبا الشرقية تضم نسبة لا يستهان بها من اليهود، الذين قد يكون معظمهم متعاطفين مع الصهيونية. فوزير الخارجية المجري الحالية، جيولا هورن، يهودي لا يخفى عداوته للعرب

وهو الذي صدرت منه اولي التصريحات حول وجود عرب ضمن الشرطة السرية البغيضة لتشاوشيسكو، وهو الذي زار اسرائيل في اول رحلة رسمية له ورفض زيارة أية منطقة عربية أو التحدث مع أي زعيم فلسطيني. وزعيم الحزب في المانيا الشرقية الان يهودي. ودعاة الانفصال في ليتوانيا وأستونيا ولاتفيا يضمون نسبة كبيرة من اليهود . وهناك للعلاف ارتباط قوي في أذهان الأوروبيين بين الكفاح من أجل الحرية والديمقراطية، وبين الدفاع عن اسرائيل، على أساس أن الليبراليين الحقيقيين يتعاطفون مع «الاقليات» المضطهدة (أذ لا تزال اسرائيل حريصة على نشر صورة «الاقليات المضطهدة» في وسائل الاعلام وأجهزة الثقافة العالمية، التي يسيطر الصهيونيون على جانب لا يستهان به فيها).

ولكن أخطر القضايا جميعا، بالنسبة الى العرب، هي هجرة اليهود السوفيات الى اسرائيل، وهي الهجرة التي يامل الاسرائيليون منها أن تعوض الزيادة السكانية السريعة للفلسطينيين، أو ما يسمونه «بالقنبلة الديمجرافية» (السكانية)، والتي أنعشت آمال شامير في التمسك بالأرض المحتلة قبل ١٩٦٧ ويعددها ،الى حد جعله يصدر تصريحه الاستثنائي المشهور في ١٤ يناير الماضي عن عدم اهتمامه بأية حلول للقضية في الوقت الراهن لان هؤلاء المهاجرين الجدد في حاجة الى أرض جديدة واسعة، وخطورة هذه القضية لاترجع ايضا الى ان معظمهم سيكونون على مستوى علمي وتكنولوجي رفيع. فهم ليسوا مجرد «يهود جدد»، كيهود الفلاشا أو المغرب، وانما هم قوة نوعية مضافة الى المجتمع الاسرائيلي، شديدة الخطورة على المجتمع العربي . ولست أدري كيف قبل السوفيات، في عهد جورباتشوف، معالجة قضية هجرة اليهود ضمن اطار مشكلة حقوق الانسان. فهل من الامور المسلم بها أن من حق الانسان مغادرة وطنه الى بلد آخر معاد له، يخدم استراتيجيته العسكرية الاخر أعظم الخدمات؟ وهل من حقوق الانسان ان يتخلى أي بلد عن مواطنين انفق على تعليم كل منهم وتأهيله عشرات الالوف ، لكي يتلقاه بلد آخر جاهزا؟ والاهم من ذلك هل من حقوق الانسان أن تهاجر أعداد ضخمة من بلد معين الى بلد آخر من أجل إمداد حقوق انسان آخر، هو الانسان الفلسطيني، في وطنه وأرضه؟

ولنتأمل هذه القضية من زاوية أخرى. ان اختيار هؤلاء اليهود

السوفيات الهجرة الى اسرائيل بهذه الاعداد الهائلة ، دليل على فشل كبير في السياسة الداخلية السوفياتية. فمعنى ذلك ، ببساطة هو أن النظام قد أخفق طوال الاعوام السبعين الماضية في إدماجهم في وطنهم إدماجا حقيقيا، بحيث يتوحد اليهود مع الاهداف العامة للمجتمع الذي يعيش فيه، مع احتفاظه بتراثه أجيال من اليهود قد ظلت، بعد قيام أكبر ثورة في القرن العشرين، تغلب صفة اليهودي على صفة المواطن، وبمجرد أن لاحت لها فرصة، اختارت الهجرة الى اشد البلاد عداء للبلد الذي نشأت فيه ، والذي عاش فيه آبائها وأجدادها. ولا جدال في أن هذا أمر بالغ الدلالة بالنسبة الى رفض الطوائف اليهودية الاندماج في أي وطن تعيش فيه، على الرغم من أن أمنية أية أقلية أخرى في مجتمع كالمجتمع الاميركي مثلا، هي أن تنصهر في هذا المجتمع وتتوحد معه. ولكن لهذه المسألة دلالة أخطر بالنسبة الى مجتمع خاض تجربة جديدة كل الجدة، هي التجربة الاشتراكية، وبني أجيالا على الولاء لفكرة الانسانية العالمية التي تتخطى حدود القوميات والطوائف ، ثم اكتشف في النهاية أن قطاعا هاما من سكانه يدين بالولاء لبلد رأسمالي يعد من ألد أعدائه، ولا يعترف بمبدأ المواطنة، ولا يتراث الوطن أو تاريخه أو أمانيه، ولا بالاخوة الانسانية على المستوى العالمي، بل يلقى لديه الانتماء الديني الضيق والمغمم بالاساطير على كل انتماء آخر!

إن كل متابع لتطورات الاحداث في السنوات الاخيرة يعرف جيدا مقدار الضغط الذي مارسه الاميركيون على السوفيات في الموضوع هجرة اليهود، ومدى المساومات والصفقات التي حاولوا عقدها معهم، من مساعدات اقتصادية وتجارية وتكنولوجية، في سبيل السماح بهذه الهجرة. ومع ذلك فإن ادراج هذه القضية ضمن قضايا حقوق الانسان ينطوي على اهانة للعقل البشري، ولكل قيم الانسانية والتنوير التي يفترض في أية ثورة اشتراكية أن تكون وريثة لها . إن المسألة كلها فضيحة على أعلى المستويات العالمية: فضيحة لكل التجربة السوفياتية السابقة، وفضيحة للرأسمالية الاميركية التي تساو من أجل اليهود بكل ما تملك من امكانات، وفضيحة للثقافة اليهودية التي يصفها أصحابها بأنها «انسانية»، مع أنها أثبتت بالدليل القاطع أنها متقوقعة على نفسها، لا تعترف بوطن مهما كانت أفضاله عليها، لأن وطنها الوحيد هو الاسطورة المريضة التي هي ذاتها اهانة للانسان

الحديث... وأخيرا، فهي فضيحة للعالم العربي الذي يقف صامتا أمام خطر مقبل يهون الي جانبه أي خطر تعرض له من قبل!

وقد يقال: وما الذي يستطيع العرب أن يفعلوه في موقف كهذا وودي على ذلك هو أن صورة المستقبل، في هذه المنطقة، ستكون على الأرجح على النحو التالي: الاتفاق بين المعسكرين يؤدي الى تراجع نسبي في تأييد المعسكر الاشتراكي (اذا ظل متماسكا) للعرب (اسيما وان مواقف العرب السابقة لا تشجع كثيرا على استمرار هذا التأييد) ولكنه لابد أن يؤدي أيضا الى تراجع في تأييد اميركا لاسرائيل. ذلك لان اسرائيل بالنسبة الى اميركا، هي في جانب هام من جوانبها جزء من متطلبات الحرب الباردة: فهي وسيلة اميركا لضمان وجود قاعدة قوية فعالة في هذه المنطقة القريبة من الاتحاد السوفياتي، ولضمان تدفق البترول الى الغرب ، وعدم زحف الايديولوجية الشيوعية في اتجاه الجنوب، فاذا انتهت الحرب الباردة، لم يعد هناك ما يدعو اميركا الى تحمل تلك المسؤوليات الجسام التي تقتضيها مساندتها لاسرائيل.

وهكذا يمكن القول أن كلا من الجانبين، العربي والاسرائيلي لن يجد السند القوي الذي كان يركز عليه من قبل، وسيكون عليه أن يعتمد على نفسه وعلى قدراته الخاصة ، قبل كل شيء.

فالعصر القادم سيكون عصر تحمل المسؤوليات، لدى الطرفين معا، ولابد أن يعد العرب انفسهم لذلك اليوم الذي سيكون عليهم فيه مواجهة اسرائيل بقواهم الخاصة ، وهذا ينطبق بالطبع على اسرائيل بدورها، واذا كانت اسرائيل قد قطعت اشواطا أبعد منا في العلم والتكنولوجيا، وحسبت حساب اليوم الذي تضطر فيه الى الاعتماد على ذاتها، فان هذه الحقيقة تضاعف من مسؤولية العرب في اعداد انفسهم لمواجهة عدو استيطاني لا حدود لشهواته التوسعية، فسوف ينتهي قريبا عصر «المواجهات بالثيابة»، وسيكون على كل طرف أن يدبر أموره بنفسه في مواجهته لعدوه.

ومع ذلك ، فان على الامة العربية أن تعد نفسها في الوقت ذاته للكفاح في ميادين أخرى غير الصراع بينها وبين اسرائيل، فعلى الرغم من خطورة هذا الصراع، لا ينبغي أن نظل نرقص على الانغام التي يعزفها لنا أعداؤنا. ففي عالم الغد مشكلات أخطر من الصراعات الاقليمية، لا ينبغي أن ننفك ازاءها مكتوفي الايدي. وأضعف الايمان، في عصر الحاسب الالكتروني، والثورة الهائلة في المعلومات، وارتداد الكواكب البعيدة، هو أن يتبنى العرب قيم العقلانية والتنوير، ويطبقوها



في شتى جوانب حياتهم، ويكفوا عن تلك اللعبة السخيفة التي يربطون  
فيها عيونهم بعصاية سوداء. ويسيروا متخططين وسط عالم تخلق عن  
لعبتهم وسار في طريق النود منذ قرون.

# الفهرس

٧.....	المقدمات	الفصل الاول
١٥.....	لجنة التسليح	الفصل الثاني:
٢٥.....	الداخل	الفصل الثالث:
٣٧.....	الاشتراكية ؟	الفصل الرابع:
٤٩.....	رؤية ملال الراسمالية ؟	الفصل الخامس:
٥٩.....	المستقبل	الفصل السادس:
٦٩.....	كله	الفصل السابع: وأين العرب من هذا

## كتاب الأهالى رقم ٢٥

يصدر فى مايو ١٩٩٠

## الاسلام والعروش

الدين والدولة فى السعودية

تأليف: د. أيمن الياسينى

ترجمة: سيد زهران



## هذا الكتاب

(كتاب)

يرى مؤلف هذا الكتاب- المفكر العربى المعروف د. فؤاد زكريا- أن الزعيم السوفيتى «ميخائيل جورباتشوف» قد أسهم فى تغيير عالمنا بأكثر مما أسهم به أى فرد آخر فى التاريخ المعاصر.

وهو يقول أن جورباتشوف يقوم بمقامرة من اكبر مقامرات التاريخ، وهى مقامرة محسوبة، قد تبدو خاسرة فى البداية، ولكنها ستنتهى فى رأيه بتراكم المكاسب..

ويراهن جورباتشوف فى رأى المؤلف على الطبيعة البشرية، التى تثور الآن على القمع والاضطهاد، وسوف تثور غدا على الظلم الاجتماعى والتفاوت الحاد بين الطبقات والتسلح الذى يهدد استقرار

ويحاول هذا الكتاب، تحليل عناء المغامرة الكبرى واحتمالاتها الممثلة خلال تفسير ما حدث وبُحث تأثير مستقبل العالم وخاصة الوطن العربى المغامرة باستخلاص توقعات عن العالم فى عقد التسعينيات!

والكتاب مغامرة فكرية من كاتب الى قارئ يملك عقلا حيا يريد ان يفهم ما يدور فى عالم اليوم.

Bibliotheca Alexandrina



0389383

